خبايا الصدور

الاهـــداء

الى الذين فى شفاههم صمت ، وفى حشاهم صخب .

الى الصابرين على الجوى .

الهادئين على السعير .

الى الذين انطوت قلوبهم على مشاعرهم .

وأغلقت صدورهم على خباياهم .

أهدى بعض « خبايا الصدور » .

يوسف السباعى

دمية أخرى

أيتها الدمية .. سامحك الله .. انى أحبك
حتى الآن .. حتى بعد أن وضعتك فى
مصاف الدمى .. ولكن الى متى يدوم
حب الدامـــــــــــــــــــــى ؟

لهفى :عليك يا ساحرة ، أن أضعك فى مصاف الدمى . لهفى عليك ياحبيبة الروح أن ينتهى بك المطاف .. لتستقرى بجوار غيرك .. ولتضيفى الى كوم الدمى ، دمية أخرى .

لهفى عليك وأنت المخلوقة الرقيقة المرهفة الحس المتأججة المشاعر .. أن أنزعك من القلب لألقى بك وسط الحطام البائد .. والرماد الخامد .

كنت أربأ بك عن هذا المصير .. كنت أنزهك عن التردى فيه ، وكنت أتشبث بك ، وأضم عليك الحنايا ، وأطبق الضلوع .. كنت مصمما على أن أبقيك الى الأبد ، كنموذج سام مرتفع يسمو عن الخطايا ، ويجل عن الهنات .

كنت مصمما على أن أجعل منك نسيجا وحدك .. نسيجا حيا .. غير نسيج الدمى البائدات الخامدات .

ولكن ما حيلتى معك ، وقد ابيت الا الزلل والهبوط ! ما حيلتى ! أخلق منك معبودة مقدسة .. فتصنعين من نفسك بشرا تافها .. أرفعك فوق الغمام فتنحدرين الى الرغام .. ما حيلتى ! أضعك فى قلبى .. فتتطايرين مع الهواء وتخرجين مع كل زفرة حارة ، وآهة ملتهبة .

ما حيلتى ! اجعل منك حبيبة الروح .. وتجعلين من نفسك دمية ؟ .

★ ★ ★

هل تذكرين قصة دمية .. بالطبع تذكرينها .

فما أظن هناك قصة كانت تشغل رأسك ، وتقلقك أكثر منها .

كنت تجزمين أن القصة حقيقة واقعة ، وكنت تكرهين بطلتها وتغارين منها ، رغم علمك أنها - بفرض صحة وجودها - قد اضحت خارج الحلبة .. وأن القلب قد خلا لك وحدك تتربعين فيه بلا شريك ولا منازع .

كانت القصة كما تذكرين تدور حول « فترة راحة » وكان بطلها الفنان الزوج الأب قد اندفع فى حب يائس لا أمل فيه سوى أن تهبه الحبيبة « فترة راحة » ، ولكن الحبيبة خذلته ونكصت على عقبيها .. فكتب يقول لها :

« لقد اندفعت فى حبك حتى خيل الى أنى أوشك أن أصل الى « فترة راحة » ولكنى رأيتك تنثنين فجأة وتقلبين ظهر المجن وتبدين على حقيقتك زائفة تافهة .

« ولا أكتمك أنى صدمت ، وأن الصدمة كانت شديدة الوقع على نفسى ، وأن صدك قد آلمنى ، وتحولك عنى قد أوجع نفسى ، واكتشاف حقيقتك عصر قلبى اعتصارا ، ولكنى استعنت بالصبر والتجلد ، وقاومت

صدك بصد مثله وصممت على أن أقتلعك من قلبى اقتلاعا .

« وأعاننى الله على البرء من حبك ، واستطعت أن أنساك أو أكاد حتى أضحيت بالنسبة الى دمية كغيرك من الدمى » .

وكان أكثر ما يقلقك .. أن تحل نهايتك معى كما حلت نهاية بطلة القصة .

كنت تخشين أن أبرأ من حبك ، وأن أنساك ، وأن تصبحى بالنسبة الى مجرد دمية .

وكنت تسألينني فى لهفة :

– كيف سلوت صاحباتك الأوليات ؟ كيف طردتهن من قلبك ؟ كيف كرهتهن ؟ . لشد ما أخشى أن ألحق بهن ؟ .

كنت تسألينني وقد جلسنا متلاصقين ، والصحراء العريضة قد امتدت أمامنا ساعة الغروب ، والشمس الهابطة تجر أذيالها الحمر ، وفى اقصى الأفق بدا المنظر الساحر الذى اتفقنا معا على أن نستوعبه فى رؤسنا قطعة قطعة ، وأن نحفظ تفاصيله وحذافيره حتى يخلد فى نفسينا هذه اللحظات السعيدة التى اختلسناها من القدر .

وانى أذكره بافاتنة .. كأنى أبصره امامى ، وسأذكره دائما كشىء لازم لك .. أذكر المزارع تمتد فى أقصى الأفق وراء الصحراء الواسعة حضراء باهتة .. كأنها شريط يفصل صفرة الرمال عن زرقة السماء . وأذكر المدخنة القائمة مرتفعة مستقيمة تنفث بدخانها الأسود المتبدد مع السحب ، وأذكر أكوام الرمال أمامنا التى استخرج منها الزلط ، وأذكر العربات تقلقك كلما مرت من الطريق البعيد ، فخلتها قادمة الينا تقطع وحدتنا ، وتزعج ، خلوتنا .

أذكر كل ذلك ياحبيبتى ..

وأذكر وجهك الدقيق الحلو وأنفك المستقيم وطرطوفته المرتفعة التى

كان يلذ لى أن أمسك بها برفق بين أسنانى كأنى أوشك أن التهمها .

أنكر عينيك الساحرتين المتلهفتين اللتين تقطران وجدا وتفيضان جرى وأنت تسألينني :

– كيف كرهتهن ؟ .

– كرهتهن لأنهن أكرهننى على كرههن .. لأنهن كن تافهات متقلبات .

– كم أود أن أبقى فى قلبك الى الأبد . انى لا أستطيع الآن أن أشرح لك حبى ، انه شىء زاخر فياض ، لا تعيننى الألفاظ على وصفه ، ولكن فى المستقبل قد تستطيع أن تعرف مقداره .

– انى أعرفه الآن ، لأنى أشعر بمثله .. ولن يقدر على أن ينزعك من قلبى الا شىء واحد .

– ما هو ؟ .

– أنت .

– وكيف ؟ .

– أنت وحدك التى تستطيعين أن تنزعى نفسك من قلبى ، بأن تدميه ، وتجرحيه ، وتبدئينى بالهجر ، وتنكرى حبى ، وتستبدلينى بآخر او بآخرين .

ونظرت الى مؤنبة وتنهدت تنهيدة حارة ، وقلت فى صوت يذوب أسى :

– أنا أفعل ذلك ؟ ! ليتنى أستطيع أن أفعله .. ليتنى أستطيع ان أرفع عن نفسى عبء حبك .. حبك اليائس الذى لا أمل فيه .

ووضعت رأسك على صدرى وقلت هامسة :

– ولكنى عبثا أحاول .. انى لا أحس بالراحة الا الى جوارك ..

أحس أنى فى موضعى الصحيح .. وأننى بت ملكك ، تفعل بى ما تشاء ولا شىء يمتعنى أكثر من ذلك . أحبنى دائما فانى لا أتصور كيف أعيش من غير حبك .

– سأحبك دائما .. كيف لا أحبك ، وكل ما بك يبعثنى على حبك ؟ . كيف لا أحبك وأنا ما رأيت فى حبك لحظة شقاء ولا ضيق ؟ . كل ما ذقته من حبك سعادة خالصة لا تشوبها شائبة .. لقد أرضيت كل جارحة فى نفسى .. كيف لا أحبك وأنت تعتبريننى مخلوقا كاملا مثاليا ؟

– وانك لكذلك .. وما من انسان الا ويعتبرك كذلك .

– لا .. لا .. ان عين حبك هى التى ترانى كذلك .

ولا أكاد انتهى من قولى حتى ألمح سحابة حزن خيمت على وجهك فأسألك فى جزع :

– ما بك ؟

– لا شىء ..

– بل بك شىء !

– لا شىء اكثر من احساس بقرب الفرقة .. كم أكره أن اتركك ولو الى حين ، ويعلم الله ماذا يمكن أن يحدث لى عندما يقدر لنا أن نفترق الى غير لقاء !

وضممتك الى ومسحت بشفتى كل قطعة فى وجهك .. عينيك ووجنتيك ، وأنفك ، وخديك ، وذقنك ، وعنقك ، وكتفيك ، وذراعيك ، ويديك .. ثم استقررت فى النهاية على شفتيك .

★ ★ ★

حمق منى أن أكرر ذلك الآن .. فما أظننى الا كالنادب فى مأتم أو كالنائح على قبر يستدر العبرات باستعادة ما مضى ويستذرف الدمع بترديد ما فات .

ولكنى لؤكد لك اننى اكتب بلا عبرات ، أو عبرات جامدة فى المقلة .. ولو سالت لخففت عنى بعض الجوى ، واذهبت عنى بعض اللوعة .

لقد افترقنا وقتذاك وأنا أشعر أننا قد وصلنا فعلا الى « فترة الراحة » .. وأننا قد انغمرنا فيها .

وكيف لا .. وأنا ما أحسست براحة ذهنية أو روحية أو قلبية كما أحسست بجوارك أو بمجرد التفكير فيك .

كيف لا .. ورسالتك التى أرسلتها الى بعد افتراقنا تنطق بذلك .. وتشهد به .

كيف لا .. وأنت القائلة فيها :

« لقد قلت اننى ما دمت قد سمحت لنفسى بأن أفعل معك ما فعلت .. فان من العبث أن آمل فى سعادة أخرى مقبلة .

أننى آخذ نصيبى من السعادة الآن فلا أظن أن هناك مخلوقا يستحقنى أو يستحق أن أهب له ما وهبت لك .. أكثر منك .. انى لا أستطيع أن أكون مثلك فأحب عشرات الرجال .. كما أحببت أنت عشرات النساء .. وأن أستمتع بهم كما استمتعت بهن .. لأننى لا أملك الا أن أحب مرة واحدة .. رجلا واحدا .. ولقد كنت أنت هذا الرجل .. ولا أحد سواك .

انى أجزم لك أننى حتى لو تزوجت فلن أحاول أن أحب زوجى كما أحببتك . قد أشعر له بنفس التقدير والاحترام اللذين تشعر بهما لزوجتك .. أو أقل .. ولكننى أؤكد لك أنى لن أجسر على تقبيله أو مسه أو على فعل أى شىء من هذا القبيل .. رغم أن هناك بعض الأشياء التى لابد لنا من تأديتها لأن واجبنا يحتمها علينا .

ان متعتك بى لا تعادل متعتى بك .. لأننى أشعر أنى أحسو كل كأسى

الآن .. انى أفرغها حتى الثمالة .. انى أستمتع بضمة ذراعيك وحرارة شفتيك وبكل شيء فيك .

لقد كنت دائما اقول لنفسى انى لابد فاعلة ذلك مع أحدهم ، ومادمت أنت الآن – وستكون دائما – أعز الناس على نفسى واقربهم الى قلبى .. فلا أظننى أكون بمخطئة اذا ما فعلته معك .

ان الحياة قاسية ياحبيبى ولا أظننا نملك ازاء قسوتها الا أن نختلس المتعة من حاضرنا فنقبل على بعضنا قدر ما نستطيع ونمتع انفسنا قدر مايمكننا ، وأن يثق كل منا بصاحبه دائما .

انى أثق بك برغم انى لا أثق قط برجل فى هذه الدنيا ، كل ما أرجوه منك هو الا تخذلنى أبدا .. أبدا .. ولنحفظ حبنا صامتا فى قلوبنا ، مستعرا فى حنايانا ، دون أن يشعر به أحد ممن حولنا .

المخلصة

« ..... »

★ ★ ★

أجل يا أخ وليساعدنا الله .. ولكن علام ؟ على الحب ؟ أو على الخلاص من الحب ؟

أما أنت .. فأغلب ظنى – رغم محاولتك الانكار – أنك قد تخلصت منه .. أما أنا .. فانى أدعوه ليل نهار ، أن يخلصنى منه ، ولكن الله لا يستجيب دعائى .. فان الذهن قد يغفو عن ذكرك لحظة ، ولكنه لا يلبث أن يندفع وراءك يلاحقك ويطاردك ، فيصيب القلب منك ما يشبه الغثيان وتغرق النفس فى ظلمة من الحزن معتمة .. وأكاد لولا بقية من جلد ، ومسكة من الاباء والخجل ، أن أندفع فى البكاء .

لقد قلت فى رسالتك : « كل ما أرجوه منك هو ألا تخذلنى أبدا » .

وأنا أقرأ الان جملتك .. ولا أملك أن أمنع ابتسامة مريرة من أن تتخذ طريقها الى شفتى .

أنا أخذلك ؟ ! لشد ما ظلمتنى برجائك .

والآن .. أيتها العاشقة الولهى .. المحبة الى الأبد .. من منا الذى انثنى عن صاحبه وتركه فى منتصف الطريق .. أو على الأصح فى منتصف فترة الراحة .. أنا ؟ . أم أنت ؟ .

لقد فعلت بالضبط كل ما حذرتك من فعله ، لقد أنزلت بى من العذاب والألم ما لو سلطه على ألد أعدائى لعجز عن انزاله بى .. لقد ارتكبت معى جريمة قتل .. معنوى .. روحى .. قلبى .

لقد قذفتنى من حالق .. وأشعرتنى بمنتهى التواضع ، وقد يكون هذا بعض ما تستحقين عليه الشكر ، اذ لابد للانسان من بعض الصدمات التى تعيده الى نفسه وتجعله يفيق من غروره .

ولكن أكنت أنا حقا مغرورا ؟ يعلم الله أنى قلت لك مائة مرة انى لا شىء .. ولكنك كنت تأبين الا تأليهى .. واتهامى بالعبقرية والنبوغ .. سامحك الله وعفا عنك .

والآن . ماذا فعلت بى ؟ وما الذى حدا بك الى فعله ؟

كل ما حدث بيننا سوء تفاهم لا يمكن أن يخلو منه عاشقان ولست أظن هناك فائدة من سرد تفاصيله ، ولكن أذكر ان أقصى ما فعلته بك هو أنى غضبت عليك لأنك لم تستطيعى لقائى ، ورفضت أن آخذ منك تذاكر لمشاهدة حفل كنت ستقومين بالتمثيل فيه .

أفعلت أكثر من هذا ؟ .

فماذا فعلت أنت ؟ .

وأنت - هذه - تحتاج الى بعض الضغط والتأكيد .. والشرح والتفسير .

أنت .. القائلة : انك ستتبعيننى الى أقصى الأرض .. القائلة بأنك لست مثلى .. أنا المتقلب المتحول .. العاشق لعشرات النساء .. لست مثلى لأنك لم تحبى ، ولن تحبى سوى رجل واحد .. هو أنا .

أنت المرتجفة خوفا من أن أنساك .. الغير مصدقة أنى أحبك حقا .

انت .. وأنت تعرفين أكثر من كل مخلوق .. ما كنت وما قلت وما كتبت ، وما فعلت .

بعد كل هذا أيتها العاشقة الوفية .. ماذا فعلت بعد أول خصام بيننا ؟ .. لقد كتبت الى رسالة وداع تقولين انك تكرهين أن تنهى ما بيننا .. وأنك مازلت تحبيننى ، وأنك برسالتك تنهين لقاءنا ، ولكنك لا تنهين حبنا وأنك ستظلين تحبيننى بينك وبين نفسك حتى تتحاشين الزلل والخطأ ، وحتى يستريح ضميرك .

وكانت كتابك – والحق يقال – قطعة رائعة فى الوداع ولم أملك الا أن أرد عليه بمثله .

ومع ذلك – ورغم أننا أعلنا الوداع بالرسائل – فقد كنت غير مقتنع بأن ما بيننا يمكن أن ينتهى حقا بمثل هذه السهولة .. بمجرد رسالة منى ورسالة منك .. كنت واثقا – لا سيما وقد قلت انك لازلت تحبيننى – ان الحنين العائد والشوق الزائد لابد معيدان كل منا الى صاحبه .

وبعد بضعة أيام حادثتك فى التليفون .. لأطلب منك لقاء قصيرا .. فقد كنت واثقا أن مجرد لقائنا سيذهب كل ما فى نفسينا .

فماذا قلت لى فى التليفون ؟

قلت لى : انك مشغولة .. وانه ليس لديك وقت .. وانك لا تستطيعين لقائى .. ولا الحديث معى .. وأنه كان يجب أن أعرف أن كل ما بيننا قد انتهى .. ثم .. ثم أغلقت السماعة فى وجهى .

وأمسكت بالسماعة برهة ، وأنا انظر اليها فى عجب وذهول .. ثم وضعتها فى مقرها فى صمت كأنى أضع ميتا فى نعشه .

ان الأمر قد يحدث لأى رجل .. ومن أى امرأة .. وحاشاى أن أستكبر وأغتر فأقول انى لست أنا الذى تعود من النساء القسوة والهجر والخذلان .

ولكن منك انت .. لى أنا .. كان أكثر من أن يحتمل . كان مذهلا .. كان قاتلا .

انت .. يارقيقة الحاشية ، يا مرهفة الحس .. ياملتهبة العاطفة ، ياذائبة القلب .. يا من تتمنين ألا أخذلك .

ومع ذلك فقد احتملت الصدمة .. ولم أحاول ردها لك .. ولم يكن أمامى سوى الاحتمال لأنى مازلت أحبك .

والتقينا بعد ذلك لقاء قصيرا عابرا .. وقلت لك فيه انى ما زلت رغم ما حدث أحبك .. فهززت رأسك وقلت « كأنى لا أفعل » .

أجل .. لقد قلت انك أيضا ما زلت تحبيننى رغم كل ما حدث .

هكذا كان قولك .. أما فعلك فقد كان يكذبه تكذيبا قاطعا .. لانى عندما لقيتك ثانية .. مددت يدى لمصافحتك - لأنى كنت أعتقد أننا نستطيع على الأقل أن نكون أصدقاء - فلم تمدى يدك .

وأحسست بخجل شديد وقلت لك :

- انها أول مرة أمد يدى فلا تلقى يدا .

- كان لابد أن يحدث ذلك فى يوم ما .

- كنت أود ألا يكون منك أنت !

وأحسست بالخجل فمددت يدك ، وصافحتنى ، ولكن بعد أن أحسست أن كبريائى قد تحطمت .

وبعد لحظات انزلت بى الضربة الأخيرة .. والقاضية .. فلقد رأيتك تجلسين مع آخر ، وقد بدت عليك أقصى آيات البشاشة والرضا والهناء .

وفى اليوم التالى تكررت منك اللطمة .. وأحسست ان الأمر بيننا قد انتهى فعلا .

★ ★ ★

وهكذا فقدت كل أمل فيك ، ولم يبق لي من أمل فى غير الله ، لقد لجأت اليه بعد طول ذنب وعصيان ، وزلل وخطايا ، أسأله أن ينقذنى منك ومن نفسى ، وينسينى اياك .

وأنا صبور .. شديد الجلد ، قوي الاحتمال ، ولكن الصدمة كانت أقوى من الصبر وأشد من الجلد .. لقد تركتنى ممرورا منهارا .

لقد كانت المسألة أشد من أن تكون مجرد فشل فى حب . لقد بدد انقلابك من النقيض الى النقيض كل ايمان لى بالحس البشرى والشعور الانسانى .. لقد كنت مخطئا من الأصل فى حبك .. ولكن كان يعزينى أنى مساق بحسى المرهف .. وقلبى الذى لا يهدأ .. وكنت أرى فيك صورة لنفسى .. فلما خذلتنى جعلتنى أشعر كالغريب الضال وأحس أنى بين الناس شاذ فى مشاعرى وفى حسى .

وحاولت جهدى أن أخفى صدمتى - وأن أبدو بين الصحاب كما أنا - ولكن صاحبى أدرك ما بى فقال ناصحا مؤنبا :

- انت السبب فى كل ما حدث .

- كيف ؟

- لم تعرف كيف تعاملها .

وماذا كنت تريدنى أن أفعل ؟

– انى أذكر اقصوصة عربية قد تعطيك درسا مفيدا . زعموا أن أعرابيا سأل عنترة بين شداد عن سر شجاعته فقال له : ضع أصبعك فى فمى وسأضع أصبعى فى فمك . ففعل الأعرابى ، فقال له عنترة : فليعض كل من الآخر ، وبدأ كلاهما فى العض فصرخ الإعرابى من الألم ولم ينبس عنترة ببنت شفة .. وترك أصبع الأعربى قائلا : هذا هو سر شجاعتى .. أن المى يعادل ألمك ان لم يكن أشد ، ولو لم تصرخ أنت لصرخت أنا ، ولكنى استطعت أن احتمل حتى صرخت أنت فبدوت أنا أكثر شجاعة .

وصمت صاحبى برهة ثم أردف :

– وهكذا كان يجب عليك أن تفعل .. انها تعض على أصبعك فعض على اصبعها واياك أن تصرخ حتى تصرخ هى وتسألك العفو واللقاء .

وهززت رأسي ، أن صاحبى لا يفهمنى ، وشر ما فى الأمر أنه ليس هناك مخلوق يمكن أن يفهمنى .. الا مخلوق واحد .. هو أنت .

أبعد هذا سخرية ؟ أنت وحدك التى كان يمكن أن أشكو اليك نفسك فتفهميننى وتقدرين أساى وحزنى .

ولقانى صاحبى بعد هذا فسألنى :

– كيف حال أصبعك ؟

فأجبته ضاحكا :

– الألم يشتد به يوما بعد يوم .

– اصبر واستمر فى العض .

ولكنى لم أحاول أن أعض لأنى أكره – بعد كل ما فعلت – ايلامك ولم يكن أسهل على من أن أحاول عضك ، وأن أكيل لك بنفس الكيل وأنت تعرفين أن الصديقات اللاتى يحاولن أغاظتك فاجتذابى اليهن كثيرات .. وتعرفين أكثر

من هذا مدى ايلامك عندما ترين صاحبا لك معه فتاة أخرى ، فما بالك بصاحب .. تحبينه أو كنت تحبينه ؟

لم أحاول ايذاءك .. وصممت على أن أحتمل الأمر ، وأصبر على الصدمة وأن أنساك .

وعندما سألنى صاحبى آخر مرة عندما أنزلت بى ضربتك القاضية :

- كيف حال أصبعك ؟

- قلت له :

لقد قطعته .

ولم يكن فى الواقع أصبعى ، بل كان قلبى .

انى أحس به يدمى وينزف .

ولكن لابد لنزيفه من نهاية .

أيتها الدمية .. سامحك الله .

انى أحبك حتى الآن .. حتى بعد ان وضعتك فى مصاف الدمى .

ولكن الى متى يدوم حب الدمى ؟

★ ★ ★

ووضع الكاتب قلمه وجمع الأوراق فطواها . وهم بالضغط على زو الجرس ليستدعى الحاجب حتى يعطى له القصة لتسليمها الى المطبعة .. فى الوقت الذى دفع الحاجب الباب وبيده بضعة خطابات ووضعها على المكتب .

ومد الكاتب يده بالأوراق لتسليمها للحاجب عندما لمح خطها المكتوب على أحد الظروف فجذبه بحركة عصبية مفاجئة .. وأعاد الأوراق الى مكتبه ثم أمر الحاجب بالخروج والانتظار .

وفض الكاتب الخطاب بسرعة وأخذ فى القراءة ..

★ ★ ★

« أتذكر القصة التى كتبتها لك عن حبنا ؟ والتى جعلت فيها البطلة التى هى أنا – تموت فى نهايتها بداء الصدر .. أتذكر رأيك فيها وقتذاك ، عندما قلت لى « انك تحبين حبك وتفزعين أن تريه الى نهاية » ولذا فضلت أن تضعى حدا لحياتك حتى لا ترين نهاية حبك » .

انى الآن فى مثل هذا الموقف ، أرى نهاية حبى ، ولكن لا أستطيع أن أضع لحياتى نهاية .. ان القدر يأبى على تلك النهاية التى منحتها لبطلة القصة .. فقد جعلنى سليمة معافاة أرقب ذبول حبى ، ولا أستطيع أن أغمض عينى حتى لا أراه .

ان أمامى الآن .. قصتك « دمية » .. أقلبها بين يدى وأقلب نظرى بين سطورها .

كم أحس بالألم والمرارة ، وأنا أرانى قد زججت بنفسى بمنتهى الحمق فى موقف بطلتها .

كم أحس بالانهيار وأنه أجد نفسى قد بت لديك مجرد دمية .

كنت بلهاء حمقاء حينما حاولت أن أنتهز فرصة خصامنا لأنهى حبنا .. أجل .. لقد ظننت فى ساعة غضب عليك انى أستطيع التخلص منه وصممت على انهائه .. فقد كنت أعرف مبلغ ثقله عليك وعلى ومبلغ خطيئتنا به وخشيتنا منه .

وذكرت ما قلت لى من أنه لن ينزعنى من قلبك وينسيك اباى الا أن أبدك بالهجر ، وأنكص فى حبك وأستبدل بك آخر .

وصممت على أن أبدأ التجربة .. تجربة انقاذك من حبى .. وانقاذى من حبك ، وأخذت فى صدك وهجرك وأستبدلت بك آخر .. تماما كما قلت لى .

ويبدو لى أن الظروف كانت قد تآمرت على .. فقد تقدم الى أحدهم وقتذاك لخطبتى ، ولم يكن هناك غبار عليه .. بل كان فى عرف أهلى يعتبر « لقطة » .

وقد وجدت فيه أنا من وجهة نظرى خير « لقطة » تعاوننى على تنفيذ خطتى ، وعلى وضع حد حاسم لما بيننا .. لاسيما وأنى كنت أخشى أن أضعف أمامك ، فأنكص على عقبى .. وأعاود الانغماس فى حبك بطريقة أشد عنفا وأكثر قوة .

ولم أحاول قط أن أفكر فى ذلك الخطيب .. أو انظر اليه بعين فاحصة .. اذ كان لدى مجرد وسيلة للخلاص .

وبين عشية وضحاها اضحيت زوجة .. واعتبرت انى قد انتهيت منك تماما .

ومع ذلك ..

أجل .. ومع ذلك .. لم أكد افيق من غمرة الزواج واجراءاته .. حتى وجدت نفسى أشبه بالمجنونة .

أشبه ؟ انى مجنونة فعلا !

ما هذا الذى فعلته ؟ ..

لقد دمرت حياتى بعملين أحمقين :

أولهما .. اننى احببتك .. ولكن عذرى فى هذا : انى لم أكن مجبرة فيه بل مدفوعة اليه على الرغم منى .. اما الثانى ، الأشد حمقا ، والذى فعلته بمحض ارادتى ، فهو أنى هجرتك وآذيتك وحطمت كبرياءك .. وفعلت بك شر ما يمكننى فعله ، ثم تزوجت بعد كل هذا بمنتهى البساطة .

أهذه هى محاولتى لانقاذ نفسى ؟ ..

يا للحمق ويا للجنون ؟

انى أعرف انى قد فقدتك تماما .. وهذا هو ما يجعلنى أكاد اجن .. ويزداد جنونى عندما أقارنك بهذا المخلوق التافه الذى تزوجته .. وعندما أذكر السعادة العميقة التى كنت تمنحنيها بمجرد لمسة يدك .

انى لا أطيقه .. ولا اطيق رؤيته أو القرب منه .

لو تركت لنفسى لفررت عائدة اليك ضاربة بكل شىء عرض الحائط .. ولكنى أعرف أنى فقدت قيمتى لديك وأعرف انك حتى لو حاولت التظاهر بحبى .. فلن يكون ذلك أكثر من وفاء منك ورفق بى .. أما حبك المتأجج المستعر فانى موقنة تماما انى قد فقدته – بعد كل ما فعلت – الى الأبد .

ما قيمة حياتى ؟ .. وأنا أرى نفسى ميتة لديك ؟ .. لقد كنت أحب الحياة من أجلك فماذا يغرينى بها أن فقدتك ؟ أليس الموت منقذا لى ؟ . أليس خير ما ينعم به القدر على هو خاتمة كخاتمة بطلة قصتى ؟ .

ولكنى القدر ضنين حتى بالموت عندما نريده .

أجل .. انى أريد الموت .. لانى أعرف أنه سيحيينى لديك .. انى واثقة أنى لن أستعيد مكانتى فى نفسك الا بعد الرحيل .

انى أفضل أن أكون حية فى قلبك ، ميتة أمام الناس .. من أن أكون ميتة فى قلبك ، حية أمام الناس !

كل ما أرجوه منك هو الا تخذلنى .. بعد موتى .. وأن تجعل لحياتى المفقودة ثمنا .. هو حبك .

أحببنى يا حبيبى كما أحببتنى دائما .. حبا جارفا فياضا متأججا مستعرا .

انى ما زلت أثق بك .

وأرجوك أن تثق بى .

ثق أنى - كما قلت لك - لا أملك الا أن أحب رجلا واحد .. وهذا الرجل .. هو أنت .

وأرجو - بعد ما قلت لك - ألا تضعنى بعد موتى فى مصاف الدمى .. لأن الدمى لا تموت .

« وخير لى أن أكون حبيبة راحلة .. من أن أكون دمية باقية » .

المخلصة

« ..... »

★ ★ ★

ولأول مرة يذوب جامد دمعه .. فتتساقط عبرتان على الرسالة ويدق الجرس ، ثم يطوى الرسالة مع القصة ويسلمها للحاجب وهو يقول فى شبه همس :

- هاكم دمية أخرى .

★ ★ ★

خطيئة أم

فرت أمى .. فخلفت لنا فجيعة ما بعدها فجيعة .. ولم تكن فجيعتنا بفرارها ناتجة عن احساسنا بألم الفرقة .. فما كانت هى بذات أثر فى الدار فنحس بأثر لغيبتها .. بل كانت فجيعتنا هى فجيعة عار وفضيحة ..

خطايا النساء ثلاثة :

خطيئة امرأة بلا زوج وبلا أطفال ..
وخطيئة امرأة ذات زوج ..
وخطيئة امرأة ذات زوج وأم أطفال ..

ولو جمعت كل خطايا الأرض لما ساوت خطيئة الثالثة ..

ان لم تصدقونى فاقرأوا هذه القصة .

هى قصة نفس مرهفة معذبة ، ألقت عليها الحياة عبء غيرها .. فأثقلت به كاهلها .. وأنقضت به ظهرها .. نفس مرهفة حساسة .. طوت

بين الضلوع مرارة احزانها .. وجمرت أساها ، حتى كاد يحرق صدرها ويتركها هشيما ورمادا .

حدثتنى صاحبة القصة فقالت :

– أمى .. يا سيدى هى علة الشقاء .. ومنبع الداء .

أمى التى كان يجب أن تكون عونى فى الحياة .. كانت عونا لها على ..

أمى التى كان يجب أن تبعد عنى الشقاء وتقينى الشر .. وتجنبنى الهموم .. لم يكن لى فى الحياة هم سواها .. كانت شقائى .. وكانت علتى .

أى انسان لم يجد بين أحضان أمه ملجأه ؟ .. وعلى صدرها راحته ؟ لقد كنت أعتبر نفسى يتيمة بلا أم .. وكنت أعدها فى عداد الأموات .. ولكن حتى هذا اليتيم لم ينعم به الله على .. فقد كنت أدرك فى قرارة نفسى أنها ما زالت حية تسعى .. وأننا – بعد طول فرقة – قد نلتقى فى أية لحظة .

لا تقل أن فى نفسى غلظة وقسوة .. ولا تقل عاقة جاحدة .. ملأت نفسها المرارة فهى تفيض بها على ما حولها .. لا .. ولا تقل لى ان « الجنة تحت أقدام الأمهات » .. فما خلفت لى أمى سوى جحيم يستعر لهبها ، وتتأجج نارها .

فارقتنى وأنا فى الثامنة .. فارقتنى فلم أستشعر لفرقتها كثير لوعة .. وغابت عن الدار .. فما خلف غيابها فراغا يحس به ، اذ كانت لا يستقر لها فى الدار قرار .. كانت أبدا فى انطلاق دائم .. لا تأوى الى الدار الا للنوم والأكل والتزين .

دعنى أعرض لك صورة لما كنت أراه وقتذاك بعينى وأنا طفلة منذ أكثر من عشرين عاما .. أم وأب فى عراك دائم وتطاحن مستمر .. لست

أدرى أيهما المخطىء ، أو أيهما المصيب .. ولا أيهما المعتدى أو أيهما صاحب الحق ، ولكن كل ما أعرفه أنى كنت أنجو بنفسى من تلك المعارك ، وألوذ بأحضان - الحاجة - الخادمة العجوز ، فأدفن رأسى فى صدرها حتى تأخذنى سنة من النوم .

انى لأذكرها تماما ، بالرغم من تلك السنين الطوال التى طواها الزمن . أذكرها ، كامرأة غريبة لا كأم ، فما اذاقتنى طعم الأمومة قط .. فقد نضب فى نفسها معين من الحنان .. أو قل انها لم تجد من وقتها فراغا تستطيع أن تشعرنى فيه أنها أمى .. لا أظنها كانت قاسية .. ولكن كل ما فى الأمر أن فرط تعلقها بذات نفسها كان يستغرق كل وقتها . ويستنفد كل جهدها . فهى لا ترى سوى نفسها .. ولا تعنى الا بنفسها ولا تمتع الا نفسها .

لا أظننى كنت وقتذاك أستطيع فهمها كما أفهمها .. فما كنت أحاول ان افهم شيئا .. وما كنت أعرف أن هناك شيئا اسمه الأنانية .. وأن هناك شيئا اسمه الشر .. ولكن كل ما كنت أعرفه ، هو أن - الحاجة - كانت أقرب الى منها .. وكانت أكثر حنانا ، وأشد حبا .

كانت أمى امرأة جميلة .. من النوع الذى لا تخلف فيه السنون أثرا .. فما كانت تبدو أما حتى ولا زوجة .. بل فتاة مرحة لاهية ، لا ترهل فى جسدها ، ولا تهدل فى صدرها ، بل تماسك واستواء .. ونضج وامتلاء .. ولقد قالوا لى انها لم ترضعنى خوفا على ثدييها من التلف .. والله أعلم ما فى قولهم من الصدق .. وان كنت أنا لا أستبعده .

ويخيل الى أنى قد ورثت عنها الكثير من ملامحها .. فلقد كانت - الحاجة - كثيرا ما تنبئنى بأننى شديدة الشبه بها ، وكم أقض قولها هذا مضجعى .

كنت لا أراها فى الدار الا منهمكة فى تصفيف شعرها .. أو فى

وضع المعاجين والمساحيق على وجهها .. أو فى تزجيج حواجبها بملقاط بين أصابعها .. أو فى أزالة الشعر عن ساقيها وعن جسدها .. أو فى طلاء أظافر يديها وقدميها .. حلقة مفرغة لا تنتهى منها أبدا .. تستغرق منها كل وقتها ، أو كل هنيهاتها التى تقضيها فى الدار أثناء اليقظة .

وكنت أحس بأنها كانت تفعل أشياء .. لم أكن أعرف بالضبط ما هى .. وان كنت أدرك باحساس هاجس .. انها أشياء غير مشرفة .. أشياء مما لا يصح عملها الا فى الخفاء .. ويخيل الى أن - الحاجة - كانت تعرف تلك الأشياء وتكرهها .. وتكره أمى من أجلها .. وتحتقرها بينها وبين نفسها وتزدريها وان كنت بالرغم من ذلك تحاول التستر عليها .

كان يخيل الى فى بعض الليالى .. ان هناك زائرا يزورنا فى الليل خلسة ، وينصرف قبلما يحضر أبى ، وكنت آوى الى فراشى مع - الحاجة - فأسألها عمن يطرق الباب فتنبئنى بأنه بائع اللبن . أو الكواء .. وتطلب منى أن أنام .. ولكن كنت لا أنام ، بل أرهف السمع ، فيدهشنى أن الكواء كأنه قد تسلل الى داخل البيت ، ومكث فيه .. ثم يهاجمهى النوم ، فأروح فى سبات عميق ، لا أدرى بعده ماذا يفعل الله بالكواء ، أو ببائع اللبن ؟

هل كانت أمى تخدع أبى وتفعل ما يحلو لها من ورائه ؟ هل كان أبى يعرف ؟ ..

من كان أبى ؟ .

أبى - الذى أعرف أنه أبى - كان مدرسا .. ثم ناظر مدرسة .. كان رجلا من رجال العلم والتربية .

أترى رجال العلم والتربية كلهم كأبى ؟ اتراهم دائما عابسين متجهمين .. لا يستطيعون أن ينسوا لحظة أنهم مدرسون ونظار ؟ أتراهم لا يرون فى كل من حولهم الا تلاميذ ؟ . وعليهم أن يؤدوا لهم كل واجبات

التبجيل والاحترام ؟ أتراهم يعتبرون أن كرامتهم لا تحفظ الا بالتجهم ؟ وأن هيبتهم لا تصان الا بالتزمت والتكشير ؟

اقسم لك بأنى ما رأيت أبى يضحك قط . ولم أكن أكرهه .. ولكنى كنت أتمنى أن يكون خيرا من ذلك .. كنت فى حاجة الى من يدللنى ويعطف على .. فلا أظن من السهل على طفلة أن تجد اهمالا من الناحيتين .. الأم والأب . فالمعتاد هو أن يعوضها أحدهما بحنانه عن الآخر .

فاذا كان الأب جادا عبوسا ، كانت الأم حنونا رقيقة ، واذا كانت الأم لاهية عابثة .. كان الأب لينا عطوفا .. أما أن تكون الأم مشغولة بصقل جسدها ، وتزجيج حواجبها والمحافظة على بروز صدرها .. وأن يكون الأب منهمكا فى احاطة نفسه بهالة من الاحترام والمحافظة على هيبته وكرامته . فذلك ما لا يحتمل .

وهكذا مرت بى الطفولة وأنا مهملة منسية .. حتى كان ذات يوم .. وكانت الكارثة .. ووقعت الواقعة .. ففرت أمى مع عشيقها .. زائر الليل الذى أفهمت أنه بائع اللبن تارة ، والكواء تارة أخرى .

فرت أمى .. فخلفت لنا فجيعة ما بعدها فجيعة .. ولم تكن فجيعتنا بفرارها ناتجة عن احساسنا بألم الفرقة .. فما كانت هى بذات أثر فى الدار فنحس بأثر لغيبتها .. أو نشعر فراغا لافتقادها .. بل كانت فجيعتنا هى فجيعة عار وفضيحة .

تصور يا سيدى .. ابى .. الرجل الجاد العبوس .. القويم الخلق .. الذى يحلق بنفسه فى برج عاجى من الهيبة والكرامة .. والذى لا يهمه شىء فى الحياة قدر ان يحترمه الناس .. تصور هذا الرجل .. وقد فرت زوجته مع عشيق لها .. وتركته وراءها لقمة سائغة تلوكها الألسن .. وتمضغها الأفواه .

لقد كان وقع المصاب عليه أشد من أن يوصف .. وأصاب منه موطنا حساسا .. فأضنى نفسه وأدمى قلبه .. لقد هد كيانه وحطمه تحطيما .. فبدا عليه الهزال والكبر كأنما هو قد زاد عمره فجأة عشرات السنين .

هكذا كان وقع المصاب بالنسبة اليه .. أما بالنسبة الى ، فماذا أقول لك ؟

حقيقة أنى كنت طفلة فى الثامنة .. وأنى لم أكن على شىء من الوعى الذى يتيح لى ان أحس بمرارة الفضيحة .. ولكنها مع ذلك أوجعتنى .. وكان أوجع ما فيها أن مر الزمن - الذى يحمل فى طيه بلسم النسيان - لم يحمل لى فى طيه نسيانا قط .. بل كان كلما أمعن فى المرور ، وكلما ازددت وعيا وازددت فهما .. تزايدنى الاحساس بالفضيحة .. وتمادى تأثيره على حياتى .

كان أول تأثير لها على .. هو تلك النظرات العجيبة .. التى أضحى يوجهها الى أبى .. نظرات الريبة والشك والحيرة والقلق .

هل كان يشك فى انى لست أبنته ؟ جائز جدا ؟ وماذا يمنعه من هذا الشك ؟

وقد كانت أمى ، هى أمى .. الخائنة الخادعة التى لوثت شرفه وطعنته فى كرامته .. من يدرى أنى لست ابنته وهو لا يعرف متى بدأت أمى خديعتها له .. ومتى بدأت تلقى بنفسها فى بؤرة الفجور ؟ . ماذا يمنعه من الشك .. وأنا - لسوء حظى - لا أكاد احمل منه لمحة شبه .. فهو لا يجد فى الا صورة مصغرة منها ؟

لقد ملأه المصاب نفورا منى وتباعدا عنى ، وكان يخيل الى أنه لا يرى فى سوى أثر الخطيئة .. أو على الأقل مصدرا لشكوك تساوره .. وريبة تملأ قلبه .. ولقد كان معذورا .. فلولاى لاضمحلت ذكراها فى

رأسه .. ولاستطاع أن ينسى .. ولكن وجودى أمامه وشدة شبهى بها .. كانا ينكآن قرحة ويدميان جرحه .. ان صدرا واحدا هو الذى استمر يؤوينى ، ويفيض على بحنانه .. هو صدر - الحاجة - العجوز التى أخذت تعيننى وتشد أزرى .

وانتقلنا من مسكننا الى مسكن آخر مبتعدين عن جيراننا الذين عرفونا وعرفوا فضيحتنا .. ولنستبدل بهم آخرين لا يعرفوننا ولا يمضغوننا بأفواههم .. آخرين نستطيع ان نخفى عليهم أمرنا .. واستبدلت مدرستى بأخرى .. فقد كنت أحس بأنى لا أستطيع رفع رأسى بين صاحباتى القديمات ، وكنت أنأى بنفسى عنهن وأجلس وحيدة فما أكلم واحدة منهن .. وما أن وأحدة عرضت فكلمتنى .. ملأ نفسى احساس بالذل .. وشعور بالهوان .. تماما كأنى أنا التى ارتكبت وزر أمى .

وبدأنا الحياة فى مسكننا الجديد .. وذهبت الى مدرستى الجديدة بعد أن امرنى أبى بأن أقول للناس اذا ما سألونى عن أمى : انها ماتت ، ولم أحس من قراره بضيق ولا بغضاضة فقد كان هذا خير ما يمكن أن يقال .

ومرت الأيام .. وعلم كل من تعرفت بهن من صديقاتى الصغيرات ان أمى ميتة ، وبدأت أحس بالكثير من الراحة والاطمئنان .. وان كان ينتابنى خوف بين أونة وأخرى من أن أمى ما زالت على قيد الحياة وأنها قد تظهر مرة ثانية فى أفق حياتنا فتجدد فضيحتنا وتعيد تلويثنا .

وذات يوم حدثت فى المدرسة حادثة تافهة .. ومع ذلك فقد نكأت جرحى وسببت لى ألما شديدا .

كنت وقتئذ فى الرابعة عشرة .. وكانت المدرسة على أهبة أن تقوم بحفلتها السنوية .. وكنت سأشترك فى تمثيل احدى الروايات التى كنا سنقوم بتمثيلها فى الحفلة .

وبدأت المدربة بتوزيع الأدوار .. ووقفت بين صاحباتى منتظرة

دورى ورأيت السيدة ترفع أصبعها وتشير الى ثم تقول ببساطة : ستقومين أنت بتمثيل دور الزوجة الخائنة .

وأحسست بأن الدماء قد تصعدت الى وجهى .. وأن رأسى من فرط الحرارة التى تعمل فيه على وشك الالتهاب .. واحسست بغصة فى حلقى وبغشاوة على بصرى ، وصمت لحظة ثم انطلقت صائحة فى غضب جنونى دون أن أدرى ما أنا قائلة : « أنا لست خائنة » .

وبهتت السيدة للوهلة الأولى .. وبهتت الفتيات من حولى ، ومضت لحظة قصيرة ساد فيها السكون وعم الدهش وكانت لحظة قصيرة جدا .. تمالكن أنفسهن بعدها .. ثم استغرقن فى الضحك ، وأخذن يتندرن بى ساخرات قائلات : « هذه هى الزوجة الخائنة » .

وعصفت بى نوبة من البكاء لم استطع مقاومتها ، وأمرت المدربة الفتيات بأن يكففن عن مزاحهن .. وأفهمتنى أنها واثقة من أننى خير الفتيات .. وأن هذا مجرد تمثيل .. وأنها ستعطى الدور لفتاة أخرى .. ما دام هذا يؤلمنى .

عدت الى اثبيت وبنفسى انهيار تام ورغبة فى البكاء .. وارتميت فى أحضان - الحاجة - باكية ، وأنبأتها بما حدث ، فضمتنى اليها ، واحسست لأول مرة بدموعها الساخنة تنساب على صفحة وجهى .. وقالت بصوت ملؤه الرقة والعطف :

- ياحبيبتى .. انت سيدة الناس .. وستتزوجين من سيد الناس .

وهمست أجيبها فى صوت مرير :

ابنة الخائنة .. لا تلتقى بسيد الناس أبدا .

- ومع ذلك فقد التقيت به .. سيد الناس بلا جدال .. وأحسنهم خلقا وخلقا .. فتى يقطن الدار المجاور .. هادىء الطبع ، جم الأدب .. وكان

طالبا فى كلية الطب .. ولم أكن أحس بوجوده بالرغم من تقارب دارينا .. حتى كان ذات يوم أصيب أبى بنوبة أغماء .. وأصابنا جزع شديد .. وخرجت - الحاجة - فزعة مرتاعة .. تستغيث بأقرب مخلوق ، فصادفها الفتى خارجا من داره وسألها عما بها فأنبأته ، ودلف معها الى الداخل .. ففحص أبى وقام بأسعافه .. ثم خرج لاحضار أحد الأطباء .

وعاد مع الطبيب الذى أنبأنا بأن أبى قد أصيب بشلل وأشار ببعض أدوية .

ومنذ ذاك اليوم بدأت أحس بتغيير كبير طرأ على حياتى ، وكان منشأ ذلك التغيير .. أمرين : أبى .. وصاحبى .

أما عن أبى فقد بدأ يتحول رجلا آخر .. وبدأت أحس لأول مرة فى حياتى ، بعطفه وحنانه . لست أدرى أكان ذلك صدى لما أبديته من جزع عليه وتفان فى خدمته ، أم أحساسا بأنه قد ظلمنى بطول اهماله وتباعده وشكه وريبته ؟ على اية حال لقد أحسست أننى أحبه ، وأنه مخلوق طيب .. وأن أمى هى المسئولة عن كل ما به .. وأنها كانت تستطيع أن تجعل منه انسانا بشوشا مرحا ، لو كانت امرأة طيبة عاقلة .

اما عن صاحبى .. فقد ألقى على حياتى شعاعا بدد ظلماتها وجعلنى أحس بأن الحياة جميلة باسمة .. وشغلنى التفكير فيه عن التفكير فيما عداه .. ولأول مرة فى حياتى بدأت أحس بلذة التفكير .. ولو قال لى انسان قبل ذلك ان للتفكير لذة لقلت عنه انه مجنون .. ما كان أمتع التفكير وقتذاك .. وما كان أعجب تلك اللذة التى أنسجها من خيوط الفكر والخيال ! . وما كان أقدرنى على ان أمتع نفسى بنفسى ! كان يكفى لكى أغمر نفسى بالسعادة وأحيطها بالنعيم .. ان اتذكره . ان أتذكر تقاطيع وجهه .. وبسماته وضحكاته ، وحركاته ولفتاته .. كيف ينظر الى ؟ ماذا قال لى ؟ أذكر كل كلمة وأتصور كل نظرة .. ما كانت أرخص السعادة

وقتذاك ! وما كان أسهل الحصول عليها ! لقد كانت تأتى من نبع دافق ، ومورد فياض .

ومرت الأيام وعلاقتنا بجيراننا تتوطن يوما بعد يوم .. ونشأت بين أبوينا صداقة توثقت مع الأيام عراها ، وذهبت لزيارة أمه .. فاذا هى سيدة كاملة .. نموذج لزوجة وأم .. بل نموذج لما يجب أن تكون عليه كل امرأة فى رقتها وطيبتها .. وحلاوة لسانها .. وطلاوة حديثها .. لا تبغض احدا ولا تنهش عرض احد .. تحب الناس جميعا ، وتمدحهم جميعا .. لا تذكر الا حسناتهم ، اما الهنات فلا تراها .

التقيت بصاحبى ذات مرة وجلسنا نتحدث .. فأخذت امتدح له أمه .. وبدا عليه الاغتباط لمديحى اياها وقال لى :

– ان مديحك لها ليس الا ترديدا لمديحها لك .. فانها معجبة بك أشد الاعجاب .. وكم سرنى أن تتحابا بمثل هذه السرعة .

وصمت لحظة ثم أردف بلهجة يشوبها الأسى :

– هل لك أن تعتبريها أما لك ؟ كم وددت لو رأيت أمك . فلا شك فى أنها انسانة فاضلة .. حدثينى عنها .. كيف كانت .

وأحسست بقلبى يدق بعنف وانتابنى شعور غريب .. وحاولت جهدى أن أتمالك وأتماسك ، واستطعت أن أجيبه فى النهاية قائلة :

– لقد ماتت وأنا طفلة . انى لا أذكر عنها الشىء الكثير .

. وافترقنا بعد ذلك .. وانتابنى شعور بالخوف والقلق .

لقد كان يسهل على أن أكذب عن كل الناس وأن اقول لهم ان أمى ميته ، وأن ألقى عليهم بما أشاء من الأكاذيب .. أما عليه هو فقد كان ذلك أمرا شاقا عسيرا ، لأنه – بالنسبة الى – ليس ككل انسان .. فلو تحققت

أحلامى العذبة وأمانى الحلوة ، ولو منحنى الله ما أتوق اليه .. فارتبطت حياتى بحياته وأضحيت زوجة له لا يفارق أحدنا الآخر حتى نهاية العمر .. لوتحقق أملى هذا .. فلا شك فى أن الأكذوبة ستضحى أمرا خطيرا .. من الصعب الاستمرار عليها .. فقد تكشفها الظروف يوما ما .. فيعرف أننى ابنة غادرة خائنة فرت من زوجها ومن بيتها .. وأنى قد كذبت عليه وخدعته .. ماذا يكون موقفى وقتذاك ؟ اليس من الأفضل لى أن أحسم الأمر من البداية .. فاما أن أنأى بنفسى عنه .. واما أن أكون شجاعة فأخبره بالحقيقية .

وجلست الى - الحاجة - فى تلك الليلة .. وقد تملكتنى لوعة وأسى .. وأخذت تحسس برفق على رأسى وتحدثنى حديثا لم أك أعى منه شيئا ، فقد كان بى شرود شديد . وأخيرا سألتهافجأة :

- ياحاجة !

- نعم يا حبيبتى .

- هل يحق لى أن أحب ، وأن أتزوج كبقية الفتيات ؟

ونظرت الى فى شىء من الدهش وهى تحاول ان تنفذ ببصرها الى رأسى لتستطلع ما وراء قولى ثم أجابت بعد هنيهة :

- اذا كان شخصا جديرا بحبك ويستحق ان يكون اهلا لك . فلا شك فى أن لك الحق فى حبه وفى زواجه .

- انه جدير بحبى وبأكثر من ذلك ، لو كنت أملك شيئا أكثر من الحب .. وهو أهل .. لا لأن يكون زوجى ، بل ولأن يكون سيدا لى .. ولكن المسألة فى أنا .. هل أنا جديرة به ؟ . وهل أنا أهل لأن أكون زوجته ؟

ورفعت حاجبيها فى دهش وتساءلت :

ولم لا ؟

ونظرت اليها نظرة طويلة فاحصة .. وأجبتها وفى صوتى بكاء حبيس :

- وأمى ؟

وصدمها قولى ، وسرت فى جسدها منه رجفة ، ولكنها سألتنى فى شىء من الاستنكار :

- ما لأمك ؟

- أأقول له عنها ؟

- تقولين ماذا ؟

- أقول الحقيقة .

أية حقيقة ؟ لقد ماتت أمك منذ زمن طويل .. هل هناك حقيقة غير هذه ؟

واندفعت فى نوبة بكاء ، وأخذ جسدى يهتز اهتزازا عنيفا بين ذراعيها .. وهى تربت على ظهرى وتحاول تهدئتى .

حتى هى تأبى على الا أن استمر فى الخدعة ، لقد أقنعنا انفسنا جميعا بأنها قد ماتت حقا .

وأحسست بشىء من الراحة ، واستقر رأيى على الا أصارحه بشىء .

وبعد بضعة أيام تناسيت حزنى .. وعدت أنغمر فى متعة حبه .. لا أبصر أمامى سواه ، ولا أذكر غيره ، وكان ذلك كفيلا بأن يمحو من حياتى كل سيئة ويبيد كل شقاء .

وعدت الأيام سريعة .. كلمح البصر .. وهكذا الأيام دائما أسرع من البرق فى السراء ، وأبطأ من السلحفاة فى الضراء .. فمرت سنتان كأنهما يومان أو لحظتان .. وتخرج هو اخيرا فى كليته فأضحى طبيبا .. وتقدم لخطبتى فى اليوم الذى تخرج فيه فزف الى بشرى نجاحه وبشرى خطبتنا .

وأخيرا تحقق أملى فى الحياة .. وأضحت احلامى حقائق ملموسة محسوسة .

فضمنى واياه بيت واحد كأنه وكر عصفورين فى ربيع الحياة . لا نرى من حولنا الا خضرة ونضرة .. وتغريدا وترنيما .

جرفنى سيل السعادة .. وأبعد عنى كل ما كان يشوب حياتى من أوهام سود وتخيلات مزعجة .. وأبعد عنى شبح أمى وذكراها ونسيتها تماما .. اللهم الا فى ليال متباعدة كنت أصحو من نومى مذعورة خائفة على أثر حلم أرانى فيه قد لقيتها ومعى زوجى وأنها كانت فى حالة متهتكة مبتذلة ، وأنها أقبلت على تحتضننى وتنبىء زوجى أنها أمى .. وبأن زوجى تركنى وأياها وفر هاربا .

ومرة أخرى أراها قد أقبلت على فى دارى ، وخلفها ثلة من الفاجرات العاهرات وأنهن قد أحتللن البيت وأبين أن يغادرنه .

وأنزعج عقب الحلم يوما أو بعض يوم ثم انساه وانساها .

ومرت السنون بعد ذلك .. وأنا سعيدة هانئة .. لا تشوب حياتى شائبة .. ولا يعكر صفوها كدر .. ومات أبى فبكيته ، ولحقت به - الحاجة - بعد فترة قصيرة فحزنت عليها .. ولكن الأيام كفكفت بكائى وأضاعت حزنى ، وأسدلت ستر النسيان الواحدة بعد الآخر ، فحجبتهم ضمن ما حجبت من الماضى البائد .

وفجأة .. ودون سابق انذار رأيتها .. من ؟ أمى ! اجل أمى !

ولو أننى يا سيدى رأيت الحاجة بعثت من قبرها .. أو رأيت أبى قد سار فى الطريق ملتحفا بأكفانه .. لما أصابنى من الذعر .. ما أصابنى عندما رأيت أمى .. التى كنت أزعم للناس ولزوجى أنها قد ماتت .

ورأيتها .. أين ؟ فى الطريق العام الذى لا يبعد كثيرا عن دارنا .. والذى يطرقه زوجى كل يوم فى ذهابه وايابه .

وشر من ذلك .. لقد كان بالرغم مما خط رأسها من شيب ، وما قد علا وجهها من تغضن ، هى هى .. أو على الأصح .. هى أنا .. ! أجل يا سيدى لشد ما كان الشبه بيننا عجيبا صارخا .. فلو أننى وضعت فى رأسى بعض الشعيرات البيض ورسمت فى وجهى بعض الغضون والثنيات لما استطاع أحد أن يميز بيننا .

وهذا يا سيدى هو ماروعنى وأفزعنى .. أى انسان يراها ولا يجزم أنها أمى ؟ اللهم الا العمى الذين لا يبصرون ، والذين لم يكن زوجى أحدهم ! .

ولم أشك فى أنها كانت فى رحلة بعيدة وأنها قد عادت أخيرا .. وخيل الى أنها ستحاول البحث عنى ! .

ولست أدرى ان كانت لمحتنى أم لم تلمحنى .. ولا اذا كانت عرفتنى أم لم تعرفنى .. ولكن الذى أدريه هو أننى انطلقت فى طريقى كأننى جرذ فزع .. وأسرعت الخطى مهرولة مرتاعة كأن هناك من يطاردنى ، حتى وصلت الى البيت لاهثة الأنفاس .

وصممت فى نفسى على أن أكون حاسمة فى أمرى والا أطيل عذابى فأفضى الى زوجى بالحقيقة .. وأقول له أن أمى لم تمت وأنها قد فرت مع عشيقها من أبى ، وأنى قد رأيتها الليلة . وليكن بعد ذلك ما يكون وليحدث مايحدث .

وصادفنى زوجى على باب البيت ونظر الى فى فزع وسألنى :

- ما بك ؟

- لا شيء .. لقد أحسست فى الطريق ببعض التعب ..

لا .. لا .. انى لا أجسر .. ان لسانى يتعثر وصوتى يحتبس .. خير لى أن أفر الى حجرتى .. وأرقد فى فراشى أتزمل بأغطية ثقيلة وأدعى اننى مريضة ..

ولم أدعى ؟ .. لست مريضة فعلا ؟ .. وهل هناك مرض يمكن أن يصيبنى بشر أكثر مما أنا فيه ؟ .

وأويت الى الفراش ، محطمة الأعصاب .. مجهدة مرهقة .. تصطك أسنانى كأنى عارية ليلة قر .

لا تدهش يا سيدى .. ولا تقل ان المسألة لا تستحق كل هذا الخوف .. وأن زوجى ما دام يحبنى .. وما دام لم ير منى الا كل حب واخلاص .. فسيغفر لى كذبى .. ولا يأخذنى بجريرة .

قد يكون ذلك صحيحا .. ولكنى لم أكن فى حالة تسمح بالتفكير .. فقد كانت المفاجأة شديدة الوقع على .. وكانت الصورة المحفورة فى ذهنى لأمى صورة شيطان أو عفريت سيدمر سعادتى ويهدم حياتى .

ومضت بضعة أيام وأنا راقدة فى فراشى .. شاردة الذهن ، غارية البال .. وعادنى طبيب فلم ير بى شيئا سوى تعب فى الأعصاب .. وحضرت أم زوجى لتمكث فى البيت بضعة أيام .. ريثما أبل مما بى ولتعنى بزوجى وبالبيت .

ولقد حيرها أمرى .. وسألتنى فيما بينى وبينها .. هل هناك ما يضايقنى من زوجى ؟ .. وطلبت منى أن أبوح لها بكل ما يشغل رأسى .. ولكنى لم أتكلم ولذت بالصمت .. هل أجسر على أن أقول لها ما يشغل رأسى ؟

وذات يوم خرجت السيدة لتذهب الى بيتها وجلست فى فراشى تعصف بى الأفكار .. وجلس زوجى على مقعد قريب منى .. وكنت أفزع من كل طرق على الباب ومن وقع كل قدم على الدرج .. فقد كان يخيل لى أن أحلامى المفزعة ستحقق .. وأننى سأبصر أمى قادمة على بين آونة وأخرى .. فيفتضح أمرى .. ويعرفون أننى ابنة فاجرة عاهرة ، وأننى - من يدرى - ابنة حرام ؟

كيف أستطيع العيش بعد ذلك مع زوجى ؟ وكيف أقوى على الوقوف أمام أمه السيدة الطاهرة الذيل .. النقية السريرة ! اللهم هبنى من لدنك رحمة .

وفجأة أحسست بطرق على الباب .. فارتجفت .. ولكنها كانت أمه لا أمى .. وشعرت بشىء من الراحة .. لم تدم طويلا .. فقد أقبلت على وقد بدا عليها كأنها تحمل أمرا خطيرا ، ودون أية مقدمات سألتنى فى هدوء :

- هل قابلت أمك ؟

وأترك لك يا سيدى أن تتصور وقع تلك الكلمات الثلاث فى نفسى .. لقد أحسست بالتواء فى معدتى .. وشعرت كأن هناك يدا قاسية تعتصر قلبى .

ولم أجب بشىء ، فقد فقدت قدرتى على النطق واحسست بغشاء على بصرى .

اقتربت السيدة وأخذتنى بين ذراعيها وضمتنى الى صدرها وهمست فى أذنى :

- أيتها الحمقاء الصغيرة .. أهذا كل ما روعك ؟ .. ليتنا أنبأناك أننا نعلم بكل شىء ، ولكن الخطأ خطؤه .. - وأشارت الى ابنها - فلقد قلت

له أن بصارحك بأنه يعلم ، وبأنه يحبك بالرغم من ذلك ، ولكنه قال انه لا يود ايلامك أو جرحك .. ولو صارحك لوفر عليك مشقة الكتمان ولأنقذك من ذلك الجمر الذى يحرق صدرك .. وما ذنبك أنت فى جريرة أمك ! ثم الى متى سنظللين تجزعين من أمك ؟ انها لو كانت قاتلة لما فزعت منها مثل هذا الفزع !

ووددت لو أقول لها أنها لو قتلتنى لكان ذلك خيرا لى .. ولكن الكلام احتبس فى صدرى .

وطرق الباب مرة أخرى ، ولم أفزع هذة المرة ، وبالرغم من اننى رفعت بصرى ، فوجدت الطارق هو أمى .. بدمها وبلحمها .

وأقبلت على تحتضننى وقد انهمر نعيمها فى بكاء صامت .

وأحسست بأننى قد غفرت لها .

ترى هل يغفر لها الله ؟

وصمتت محدثتى .. فقلت لها .

- ان الله غفور رحيم ..

★ ★ ★

زهور ذابلة

دنيا المجانين لشد ما أخطأت به الظن .. لقد
كان مجنونا من نوع هادىء .. أو مجنونا
مـــن عشاق الزهـــو الذابلـــة ..

أقسم ان الهوى ضرب من الجنون .. أو هو الجنون الذى يخشى الناس أن يسموه بحقيقته فيصبحوا كلهم مجانين .. فكلهم عشاق .. وعلى قدر الهوى اختلف الجنون .

قرأت ذات مرة عن أحد الفلاسفة أنه سئل عن العشق فقال : جنون الهى لا محمود ولا مذموم . وقال آخر : طرف من الجنون ان لم يكن عصارة السحر .. وكانت هذه هى المرة الأولى التى صادف فيها قول فيلسوف هوى فى نفسى .. أو على الأصح ، كانت هى المرة الأولى التى استطعت فيها أن أفهم قول فيلسوف .. فقد كنت لا أرى فى الفلاسفة الا أقدر الناس على قول ما لا يفهمه الناس ، ولا حاجة اليهم بفهمه أما هذا القول فقد كان قريبا الى فهمى .. اذ كانت تلك هى عقيدتى .. وهذا هو مذهبى .. وكنت - كما قال ابن الرومى - لا أرى فى العشق الهائم ، الا صحيحا له أفعال مجنون ، .

وكنت أنا نفسى مثلا لذلك الصحيح الذى له أفعال مجنون ، اذ كنت من محترفى الهوى .. ان صح انه يمكن لانسان أن يحترف الهوى .. فما رأيت قط وجها فاتنا الا وعشقته .. وما عرضت لى عينان ساحرتان أو شفتان فاتنتان الا وتركتانى صريع هوى وقتيل حب .. ولم يك من شىء يطربنى كالحملقة فى منبع للجمال أو العدو وراء مصدر للفتنة .. ولم يك من شىء يحزننى قدر أن أبوء من تلك الحملقة بالاخفاق وأعود من ذلك العدو بخفى حنين .. وهو ما كان يحدث لى فى أغلب الأحيان .

وقد يكون الطرب بالجمال شيئا لا غبار عليه ، أما الحزن بالاخفاق عن الظفر به ، فذلك ما كنت أحس بأنه نوع من الجنون .. ولست أدرى والله ماذا كنت فاعلا لو أنى قد بلغت من واحدة من هاته العشرات اللاتى أعشقهن مأربا أو نلت مراما .. وكيف كنت أستطيع أن أوزع بينهن وقتى أو قواى .. حتى ولو كنت أبليس نفسه ؟ ولكنه خبل الهوى وجنون الغرام !

ولم يكن يعزينى فى تلك الحال التى أرانى عليها .. سوى يقينى ان معظم الناس يشاركوننى فيه .. فما كنت أبرىء منهم أحدا مهما اختلفت طباعهم وأعمارهم .. اللهم الا واحدا كنت أراه بين الناس نسيج وحده .

كان صاحبى هذا شديد رجاحة العقل ، كثير الهدوء والاتزان .. حتى لقد توهمت به - قبل أن أعرفه بتمام معرفته - جمود حس وخمود عاطفة من فرط ما كان يبدو لى من رزانته وهدوئه .. ولكن لم تكد تزداد بيننا أواصر المعرفة وتربطنا روابط الصداقة .. حتى بدأت أتبين فى نفسه رقة وجمالا ، وبدأت أكتشف فيه روحا شاعرية حساسة .. ورأيتنى أتذوق منه الكثير من جمال الأدب والشعر .. وتبينت فيه ميلا الى الفنون على اختلاف أنواع ذلك .. ومع كل هذا كنت أجد عنده ميلا عن النساء وزهدا فيهن .. فما رأيتهن يحركن فيه ساكنة راكدة ، أو يثرن به جامدة باردة ، وما كان ذلك الوجه الذى يجعلنى أحملق فيه ثم أتابعه بنظراتى حتى تكاد

عيناى تفارقان محجريهما عدوا وراءه .. ما كان ذلك الوجه ليثيره أكثر مما يثيره مقعد فى حجرة أو سيارة فى طريق .

وهكذا اعتقدت أخيرا اننى عثرت على عاقل فى دنيا المجانين .. حتى كنت أجلس وصاحبى ذات ليلة فى شرفة داره ، وكانت تهب علينا نسمات خفيفة كأنها زفرات هادئة من قلب ليلة من ليالى الصيف .. وساد صمت عميق شرد فيه كل منا بذهنه مع أوهامه وأحلامه .. حتى رأيتنى أقطع حبل الصمت وأسأله مداعبا :

فيم التفكير والتأمل وأنت لست من العشاق أو من أشباههم ؟

– أو قد حرم التفكير الا على العشاق ؟

– لم يحرم ، ولكنهم هم أحمق الناس به ، فهم يستعينون بحلاوة الأوهام على مرارة الحقائق .. وهم ينالون من متعة الأحلام ما حرموه من لذة الواقع .

وضحك صاحبى ضحكة لم أميز مداها من الضحك ، فقد لمحت بها مرارة وسمعته يقول بين المزاح والجد :

– اذا فاعتبرنى من العشاق .

فأجبته بضحكة ماجنة . ولكنه عاد فأردف فى صوت ملؤه الحزن :

– على الأقل من عشاق الزهور الذابلة .

ودهشت له .. فقد مست منى لهجته الحزينة موضعا حساسا .. وانتظرت أن يطلعنى على خبيئة نفسه .. ولكنه لم ينبس ببنت شفة .. بل غادر الشرفة فى صمت واختفى داخل الحجرة ثم عاد بعد لحظات ومعه كيس جلدى صغير مما يضع فيه المرء نقوده وأوراقه .. ثم جلس بجوارى .. ورأيته يفتح الكيس ثم يخرج من جانب منه زهرة ذابلة أمسكها

بحرص بين أصابعه خشية أن تنفرط أوراقها الجافة الباهتة ، ونظر اليها بلهفة وحنين ثم أعادها الى مكانها بعناية ورفق ، ومد أصبعه الى الجانب الآخر من الكيس وأخذ يعبث فيه هنيهة .. واستطعت أن أميز ذلك الشيء الذى يعبث به .. فاذا هو مسحوق أوراق لزهرة اخرى أشد من هذه ذبولا وأقدم عهدا ، فقد طال بها الزمن فى الكيس فحولتها الأيام رمادا كأديم الأرض .

وزاد دهشى من صاحبى ، واشتدت بى اللهفة الى أن أعرف سر حرصه على تلك الزهور الذابلة البائدة .. ولم يطل انتظارى فقد تكلم أخيرا .. تكلم وكأنه يحدث نفسه .. أو كأنى غير كائن .. فهو يستعيد لنفسه ذكرى قد تكون بها مرارة وقد تكون بها حلاوة .. لكن الذى لا شك فيه هو أن فيها عزاء وفيها سلوة .

قال صاحبى :

– عرفت الحب مذ عرفت الحياة .. فقد كان أول ما وعيته فى هذه الدنيا هو انى أحببت .. فما خلت لحظة من لحظات حيانى منذ طفولتى من معشوقة أهيم بها عشقا .. وما زلت أذكر كيف كنت أقذف غطيان القلل من المنور وأنا فى السادسة من عمرى .. لا لشيء الا نزولى لاحضارها من لدن الجيران الذين يقطنون فى الطبقة السفلى فأستطيع بذلك ان أسترق من ابنتهم الجميلة بضع نظرات أو بضع كلمات ..اذ كنت شديد الولع بها .. حتى أنى كثيرا ما كنت أتخيل نفسى مكان البطل « دان » وأتخيلها مكان الحسنا « دورا » اللذين كنت أتابع مغامرتهما فى (مجلة الأولاد) فأرانى وقد حملتها فى طائرة الى جزيرة نائية بعيدة عن أعين الرقباء .

ورحل الجيران ورحلت معاهم فتاتى المحبوبة .. فسرعان ما احتلت غيرها مكانها .. وهكذا ظلت تتتابع على الحبيبة تلو الحبيبة .. فما خلا قلبى من واحدة قط .

وكان حبى فى الحب نوعا عجيبا .. اذ كنت شديد الانطواء على نفسى .. كثير الخجل والحياء .. فكنت أكتفى بالحب السلبى .. او بالحب من جانب واحد .. فما من واحدة من هؤلاء العشرات اللاتى ولهت بهن حبا قد بادلتنى الحب .. أو حتى أدركت أننى أحبها .. فقد كنت أخلو الى نفسى فأدبر الخطط للقاء ، وأحضر ما سوف أردده لها من الأحاديث ، وأتوهم ما سوف تقوله لى وما سوف اقوله ردا على قولها .. وهكذا حتى أحكم فى رأسى كل تفاصيل اللقاء .

ولكننى لا أكاد أبصرها حتى أحس بالدم يتصاعد الى وجهى .. وبأنفاسى تتلاحق وقلبى يدق دقا عنيفا حتى كأننى أعدو فى سباق ، وأحس بالارتباك قد شملنى من أخمص قدمى الى قمة رأسى .. وأحس كأننى لست أنا أو كأننى اسير بلا قدمين أو بلا رأس .. ولا أكاد اقترب منها حتى أكون قد وصلت الى أقصى درجات الارتباك .. واذا بكل ما كان فى رأسى قد تطاير وتلاشى .. واذا بى لا أفكر فى شىء سوى الفرار .. وقد لا أكون مبالغا اذا قلت أن كل أدوار العشق التى مرت بى كانت من هذا القبيل .. لا تغيير ولا تبديل .. حتى ألفت ذلك الحب الذى لا يشعر به غيرى .

ومرت الأيام ، وشارفت الثامنة عشرة ، وأنا غريق فى هوى نفسى .. وذات ليلة خلوت الى نفسى أستذكر .. فأخذ بصرى ضوء فى النافذة المقابلة .. واذا بى أرى فتاة قد جلست تعمل بابرتين من ابر التريكو ، وقد سحبت ببصرها من النافذة .

وأدركت أن البيت المجاور قد سكن ، وأطربنى ان تكون الفتاة جارة لنا .. وقلت لنفسى – كما تعودت أن اقول دائما – ان هذه هى حبيبة العمر .. ولابد أن أكون معها جريئا .. لافوز منها بحب أو بصداقة .. وأن أقلع عن ظك الخجل والانطواء .

وبدأت الهجوم .. ولم يكن لدى من أسلحة الغزل .. سوى

الحملقة .. وظللت أحملق فى الفتاة ما يقرب من نصف ساعة .. وهى لا تكاد تشعر بوجودى .. وهنا بدأت أعمال الجرأة – أو على الأقل ما ظننته كذلك – فصرخت بالخادمة أن تحضر لى كوبا من الماء .. حتى ألفت نظر صاحبتنا .. ومع ذلك لم يحرك صياحى ساكنا .. فقمت الى النافذة وأغلقتها بشدة ثم فتحتها ثانية .. محدثا بذلك ضجة توقظ أهل الكهف .. وها فقط أحست بوجودى .. ورفعت الى بصرها بدهش كما لو كانت تنظر الى مخبول .. ثم قامت الى المصباح فأطفأته فى هدوء وساد الغرفة ظلام وسكون .

وندمت على ما فعلت .. فقد كان من الخير ان الزم السكون فأمتع منها ولو بالنظر اليها .. وأخيرا ذهبت الى فراشى .. وأنا أضع الخطط فى رأسى كما تعودت أن أفعل .

وتعودت بعد ذلك أن أراها فى مكانها كل ليلة .. وأحسست أنها تنساب الى نفسى انسياب الجدول .. فقد سحرنى هدوء وجهها ورقته ، وفتنتنى تلك السكينة والبراءة التى تعلو ملامحها .. ورأيتها قد أحست بوجودى .. وأنها لم تعد تغضبها نظراتى .. بل خيل الى أن هناك نوعا من الود قد نشأ بيننا من طول النظرات .

ولم أكن أشك وقتذاك فى أنها تكبرنى بما يقرب من سبع سنوات فقد كانت تبلغ الخامسة والعشرين ، ولم أكن أشك فى أنى لن آخذ منها أكثر من سابقاتها .. فأغلب ظنى أنها لا تنظر الى أكثر من نظرتها الى تلميذ عابث خير له أن يشغل نفسه بالدروس أو بلعب الكرة .

ولكنى – بالرغم من ذلك اليأس – وجدتنى اندفع فى حبها ، ووجدتها – وقد سبب لى هذا أرق ليلة كاملة من فرط الفرح – تبتسم لى ذات مرة وتشير برأسها محيية .

ولا أظن امرءا يستطيع أن يدرك مبلغ سعادتى بتلك البسمة .. أنا

الذى أحببت مئات المرات دون أن تعرف واحدة ممن أحببتهن انى أحبها .

ولا أدرى بعد ذلك كيف بدأ بيننا التقارب ، ولكننى أذكر أنه حدث دون سابق تحضير أو ترتيب ، ودون أية خطة موضوعة كتلك الخطط التى كنت أضعها للتقرب الى من أحببت ، وكانت تنتهى دائما بفرارى من الميدان .

لقد كانت رقيقة لطيفة .. فأطارت من نفسى ما بها من خجل وارتباك .. ورأيتنى أفيض بالحديث معها .. حتى لكأن اللقاء لم يكن لأول مرة ، بل لكأنها توءم نفسى وصنو روحى .

وقضيت بعد ذلك فترة من العمر ، تغمرنى بحنانها الفياض وحبها الطاهر الذى لا تشوبه شائبة .. وما زلت أذكر تلك الليالى التى كنت أتسلل فيها الى حديقة دارها ، والكون قد شمله سكون عجيب .. فأجدها فى انتظارى فى خميلة بركن من الحديقة ، حيث نجلس متلاصقين ، ويمر بنا الوقت سراعا وقد اتكأت برأسى على صدرها ، وأحسست بيديها تعبثان بشعرى وأخذنا نتهامس فى صوت خفيض .

وذات يوم وأنا عائد من المدرسة لمحت على باب دارها بعض الأعلام الخضر .. فأحسست بانقباض فى نفسى .. وعندما لقيتها فى تلك الليلة أخبرتنى بأنها ستزف بعد بضعة أيام .. وكانت تبدو على وجهها لمحة من يأس .. وكان فى صوتها صدى لبكاء .

وتواقفنا للوداع فرأيتها تمد يدها لتقطف احدى الزهور التى شملها الظلام وتدفع بها الى هامسة :

- اذكرنى بهذه الزهرة .

وصمت صاحبى ومد أصابعه فى الكيس يعبث بمسحوق الزهرة البائدة ثم قال :

– هذه هى الزهرة الأولى .. أما الزهرة الثانية ..

ورأيته يخرج الزهرة الجافة برفق ثم يتأملها هنية .. ويقول :

– اما الزهرة الثانية .. فهى فتاة لقيتها فى الصيف الماضى على شاطىء البحر .. بعد خمسة عشر عاما من فراق الزهره الأولى .. خمسة عشر عاما .. لا أدعى انى قضيتها في زهد تام عن النساء وفى منأى عن الهوى والعشق ، ولكنى مع ذلك أستطيع أن اؤكد أن ذكرى صاحبتى لم تفارق رأسى لحظة واحدة .. وأننى عدت الى سابق عهدى من الانطواء على نفسى .. ومن الحياء والخجل .. فما استطاعت واحدة أن تحتل من نفسى مكانتها .. حتى لقيت فتاة الشاطىء – أو على الأصح صبية الشاطىء – ببراءتها وسذاجتها .. كأنها دمية جميلة فرأيتنى اندفع فى حبها ، ورأيتها تندفع فى حبى ، دون تفكير منا ولا روية ، وأخذنا نلتقى على الشاطىء فى الصباح المبكر والبحر قد خلا الا منى ومنها .. وكنت أدهش لذلك الحنين الذى أحس به نحوها .. وكنت أراها أشبه بقطة صغيرة .. عندما أمسك بوجهها الصغير بين كفى والحظ فى عينيها بريق سرور وهناءة .

واستطاعت الفتاة الحلوة الصغيرة أن تعيد الى نفسى تلك السعادة التى افتقدتها فى تلك الأعوام الطويلة .. منذ أن فارقت صاحبتى الأولى .

وذات صباح افتقدت الفتاة فلم أجدها .. وطالت غيبتها عنى بعد ذلك ، فانتابنى هم وأصابنى جزع وقلق .

وكانت النهاية فى هذه المرة أسرع وأقصى مما يتصور عقل . فقد علمت أخيرا أن الفتاة الحبيبة قد أصابتها حمى أودت بها ولم تمهلها كثيرا ولا قليلا .

وحملتنى قدماى بين سكون المقابر ووحشتها حتى استقر بى المقام أمام قبرها فرأيت امرأة قد عصف بها الحزن فطفقت تنشج فى لوعة

ورأسى ، فـأدركت أنهـا لابـد وأن تكـون أمهـا الثكلـى ورفعت الى المرأة وجهها .

وصمت صاحبى هنيهة .. ثم سألنى هامسا :

– ترى من تظن الأم الحزينة ؟ .

وهززت رأسى فى تساؤل .. اذ لم أستطع أن أدرى ما يعنى .. وأردف هو فى صوت ملىء بالمرارة :

– لقد كانت صاحبتى الأولى .. لقد رفعت الى بصرها ولم يبد عليها دهش لمرآى .. فقد عرفت من فتاتها من أكون . ولقد أسعدها أن يربط بينى وبين ابنتها ذلك الرباط الذى لى يستطع أن ينتظمنا من زمن خلا .. ولكن القدر سخر منا مرة أخرى .

ورأيتها تمد يدها الى بشىء قالت أن ابنتها طلبت منها أن تعطينى اياه لأذكرها به .. ونظرت الى ما أعطتنى فاذا به زهرة ثانية .

وأمسك صاحبى بالزهرة بين أصابعه ، ورأيت فى عينيه سحابة دمع تهم بأن تهطل على خديه .

أهذا هو الذى ظننته عاقلا فى دنيا المجانين ؟ .

لشد ما أخطأت به الظن .. لقد كان مجنونا من نوع هادىء .. أو مجنونا من عشاق الزهور الذابلة ؟ .

★ ★ ★

عبقري يبعث

هذه الوريقات التى رأيتنى انكب على نسخها من جديد ستكون حدثا فى عالم القصة والأدب ان صاحبها عبقرى ثوى فى باطن الأرض .. ولقد أقسمت بأن أفنى نفسى لأخلـــــــــــــده ..

كنت أقف أمام الواجهة الزجاجية لاحدى المكتبات الشهيرة ، فاخذت أفحص ما صف فيها عن كتب لعلى أجد به جديدا يستحق الشراء ، وأخذت انقل بصرى من كتاب الى آخر دون أن أجد هنالك ما يستدعى الانتباه . فكل ما فى الواجهة لم يكن ليزيد على كتب قد ابتعتها من قبل .. أو على كتب لم أبتعها لتفاهة فى الموضوع أو لغلاء فى الثمن .

وهممت بالمسير .. ولكنى وجدت الواجهة الزجاجية تفتح من الداخل .. وأبصرت يدا تمد فتضع كتابا جديدا فى نهاية الصفوف.. فتمهلت قليلا لأقرأ عنوان الكتاب واسم مؤلفه .

ووقفت هنيهة ، وقد علق بصرى بالكتاب .. فقد كان كلا الاسمين –

اسم الكتاب والمؤلف – معروفا لدى .. وخيل الى أنى قد سمعت بهما قبل الآن ، وان كنت لا أنكر انى رأيت الكتاب من قبل ، ولم يطل بى التفكير .. حتى بدرت منى صيحة دهش لم أستطع كتمها . واندفعت داخل المكتبة كأن بى مسا من جنون .. وبعد لحظات كنت أنطلق الى الدار والكتاب بيدى وقد شرد ذهنى فى حشد من ذكريات غابرة .. كان الزمن قد جعل منها رفاتا بائدا باليا ، فاذا الكتاب يبعث فيها الحياة كأنها ما انطوت فى بطن الزمن وما ثوت .

وخلوت الى نفسى أتصفح الكتاب ، فقد كان بى لهفة اليه .. اذ لم أكن أتصور قط أنه سيخرج الى الحياة .. وما ظننت أن تلك الوريقات الممزقة البالية قد قدر لها أن تبعث من مرقدها بعد طول خمود ورقود .

وحاولت أن أقرأ ، ولكن ذهنى كان فى غيبة بعيدة .. وكنت ابصر الحروف أمامى أشباحا متصلة متشابكة تتراقص أمام عينى فلا أستطيع أن أفهم لها معنى .. فطويت الكتاب وأحنيت رأسى الى الوراء .. ثم أطلقت لذهنى العنان ورحت فى شبه غيبوبة .

يا للفتاة العجيبة ! . انى لأذكرها جيدا على الرغم من تلك السنين التى فرقت بينى وبينها ، وكأنى بها جالسة أمامى وقد تقوس ظهرها وانكبت برأسها على الوريقات المطموسة الباهتة تعيد كتابتها .

كان ذلك فى حى المنيرة .. وكانت أول مرة أبصر فيها واحدا من جيراننا الجدد الذين سكنوا منذ يومين الشقة المقابلة .. عندما عدت الى الدار ذات مساء فلمحت من خلال الباب شبحها وقد انحنت على المنضدة وبدأ عليها الانهماك فى الكتابة حتى لكأنها تلميذ يسكب على أوراق الامتحان عصارة ذهنه .. أو عاشق يريق فى رسالة غرام ماء قلبه .

ورأيتها بعد ذلك بضع مرات .. وعلمت أنها طالبة فى كلية الآداب .. ولم تكن مفرطة الجمال ، ولكنها كانت مقبولة الشكل .. وكان

بوجهها ميل الى الصفرة وبجسدها ميل الى النحول .. يبدو عليها حدة الذهن وشدة الذكاء .. ولم تكن الفتاة لتثير فى نفسى الاهتمام .. لولا ذلك الانهماك العجيب فى الكتابة والنسخ .. فما رأيتها تفعل شيئا سوى الكتابة .. حتى بت اتحرق شوقا لارى فيم تكتب وماذا تنسخ .. وسنحت الفرصة أخيرا وبدأت اواصر الصداقة تربطنا بجيراننا الجدد .

وبدا لى من نفس الفتاة ما هو خير مما بدا من وجهها وجسدها .. وبدأت تنال منى الكثير من الاعجاب .. وأقبلت عليها ذات مرة وهى منهمكة فى الكتابة وجلست على مقعد بجوارها .. فرأيت أمامها كومة من أوراق رثة باهتة من مختلف الأنواع والأحجام وقد اندس بينها بضع من علب السجائر قد كتب على ظهرها ، وبعض من ورق الجرائد قد كتب على هوامشه .. ورأيتها أخذت تنسخ من هذا ومن ذاك كأنما تحاول أن تجمع منها موضوعا معينا .

وسألتها عما تكتبه .. وطلبت اليها أن تكف عن الكتابة لتريح نفسها بالحديث الى بعض الوقت .. ولابد أن يكون التعب قد أخذ منها كل مأخذ .. اذ ما كادت تسمع قولى حتى ألقت بالقلم جانبا واستقام ظهرها بعد طول انحناء ثم نظرت الى هنيهة وأجابت :

– اتريد حقا ان تسمع ؟ .. لقد أجهدتنى الكتابة وأحس برغبة فى الراحة والحديث .

وتأبطت يدها أميل بها الى الشرفة وجلسنا هنيهة فى صمت ما لبثت أن قطعته وقد استجمعت شوارد أفكارها .. ثم بدأت تتحدث :

– هذه الوريقات التى رأيتنى أنكب على نسخها من جديد ، ستكون حدثا فى عالم القصة والأدب .. ان صاحبها عبقرى ثوى فى باطن الأرض قبل أن يتمكن من اخراجها الى النور ، وكم أود أن يهبنى الله قوة من لدنه حتى أبعثها الى الحياة . وكم تتملكنى اللوعة والأسى ، عندما أتصور أنه

سيفنى وتفنى ذكراه .. دون أن يحس به أحد .. انى أريد ان انصفه فى مماته .. ما دام هو لم ينصف نفسه فى حياته .. انه شخص يستحق الخلود .. ولقد أقسمت أن أفنى نفسى لأخلده .

دعنى أعود بك الى الوراء قليلا ، فأخبرك كيف رأيته وكيف عرفته ، لقد جمعتنى واياه زمالتنا فى كلية الآداب .. ولفت نظرى بكبير هدوئه وميله الى الوحدة .. فما رأيته قط يخاطلب احدا أو يسير مع أحد .. وأحسست فى نفسى بميل اليه .. وقد يكون ذلك لتشابه بين نفسينا وتشابه فى طباعنا . فقد كنت أنا الأخرى شديدة الصمت والنفور من الناس .. وتعارفنا ذات يوم ، وسرعان ما توثقت بيننا عرى الصداقة .

وأدهشنى الفتى .. فما اذكر أنى لقيت فى حياتى امرءا غيره يجمع فى نفسه ذلك القدر من الشعور الفياض والاحساس المرهف .. كان فنانا فى كل شىء ، ولوعا بكل نواحى الفن من رسم وموسيقى وأدب وشعر ، وكان كريم النفس ، جميل الخلق .. فما رأيته يكره أحدا أو يذم أحدا ، بل كان يحب كل الناس .. حتى ليخيل لى أنه لو وزع ما فى قلبه الجميل من حب وعطف على الناس أجمعين .. لما بقيت فى هذه الدنيا عداوة أو خصام .

وكم كان يحلو لى أن أجلس بجواره فى حدائق الأورمان عقيب انتهاء الدراسة .. فأستمع اليه يترنم ببعض من أبيات الشعر قديمه وحديثه .. أو يقص على قصة قرأها فأعجبته .. أو ينشد لى بعضا من الأغانى التى تستهوى نفسه .. وكان شديد الولع بشوقى وبعبد الوهاب عندما يلتقيان فى اغنية .. وانى لأكاد أسمع صوته العذب وهو يترنم بقصيدة « ردت الروح » .. وكانت أحب الأغنيات الى نفسه .. وأكاد أبصر وجهه الرقيق وهو ينشد فى ابتسامة حلوة هادئة :

موقعى عندك لا أعلمه　　آه لو تعلم عندى موقعك

فتملكنى اللوعة ويحنوينى الشجن .. وأتمنى لو يسمعنى الآن كما أسمعه ، وأن يصل صوتى الى مضجعه .. فأهتف به كما هتف بى من قبل :

نامت الأعين الا مقلة تسكب الدمع وترعى مضجعك

ولكن أين صوتى من مسمعه ؟ وأين عينى من مضجعه ؟ لقد أضحى الآن عظاما نخرة يحتويها قبر بأرض قفرة .

كان كثيرا ما يحدثنى عن أبيه .. فقد كان شديد الاعجاب به .. وكان يتحدث عنه كما يتحدث عن صديق حميم .. وكان يحلو له دائما أن يقرأ لى الكثير من مؤلفاته وقصصه وأشعاره .. وكان يخبرنى أنه ما عشق كتابة كعشقه كتابة أبيه ، وما أستطاع اديب أو كاتب أن يمس من نفسه موضعا حساسا كما استطاع أبوه .. ولم يكن يدرى أعند الناس كان كذلك . أم كان ذلك الاعجاب منه لتشابه بين نفسيهما لأنه أبوه ولأنه كان يحس عندما يقرأ له بأنه يقرأ لنفسه ؟

وذات يوم اقبل على وبوجهه بشاشة وحبور ، وانتحى بى ناحية هادئة ، ثم أخرج بضع ورقات من حقيبته وخاطبنى قائلا :

- أريد أسمع رأيك فيما سأقرؤه عليك . فأياك والمجاملة .

وعندما انتهى من القراءة لم يسعنى الا أن اهتف صائحة :

- رائع ! . مدهش ! .. أين البقية ؟

- لم أكتبها بعد ..

- أقسم لك أنها ستحدث ضجة فى عالم الأدب اذا أتممتها على هذا المنوال .. ان قدرتك على الوصف والتصوير لقدرة عجيبة .. وأن خيالك لآية فى الروعة .

ولم أكن فى قولى هذا مبالغة أو مجاملة .. بل كنت أتكلم عن عقيدة راسخة لأنى كنت ألمس فيه عبقرية كامنة .. عبقرية خلقها الله معه .

وفى اليوم التالى .. افتقدته فلم أجده .. ومضت بضعة ايام وهو فى غيبته حتى أبصرته أخيرا فى صبيحة يوم وهو يسير فى فناء الكلية متجها نحو الباب ، فأسرعت الخطى اليه وناديته ، فتوقف ، ثم أدار الى وجهه .. فراعنى ذلك الهزال الذى بدا عليه .. والحزن الذى كسا وجهه .. وتلك الملابس السود التى احتوت جسده .

ومد يده الى فى صمت .. ولم أجد فى نفسى الجرأة على سؤاله .. فقد خشيت أن أنا تكلمت أن انفجر باكية .. فقد كان مرآه الحزين يوجع نفسى ، وما تعودت أن أراه حزينا .. وأكتفيت بأن أهز رأسى مسائلة .. وأجاب :

– انه أبى !

وعرته هزه سرت فى أطرافه كمن يغالب البكاء ، ثم أرخى يده فشد على يدى بسرعة وغادرنى دون أن ينطق بكلمة .

وكانت آخر مرة أبصرته فى الكلية فقد انقطع عن الدراسة بعد ذلك والتحق باحدى الوظائف الكتابية ، اذ كان عليه أن يحصل على المال لأن أباه لم يترك لأسرته شيئا .

ولقيته بعد ذلك .. أو على الأصح تعمدت لقاءه .. فقد كان بى شوق الى ان ابصر وجهه وأسمع حديثه .. فرأيته مفرط الصمت ، كثير الاطراق والوجوم .. فسألته عما تم فى قصته .. فأجاب فى اقتضاب :

– لقد تركت الكتابة .

– لا تكن مجنونا !

– ان اخوتى فى حاجة الى نقود ورعاية .. انى أعمل صباحا وبعد الظهر .. وليس لدى ثانية أقضيها فى الكتابة .

وخيل الى كان فى صدره طائرا حبيسا يحاول الانطلاق ولكنه كان يضيق عليه الخناق .

وحاولت عبثا أن أعيد الى نفسه الأمل .. ولكنه هز رأسه فى صمت وأجاب كمن يحدث نفسه :

– لا فائدة .. هذه الحياة لابد أن يضحى فيها البعض ، كى يسعد البعض الآخر .. والا اصابهم الشقاء أجمعين ، ولقد قدر لى أن أكون من النوع الأول .

وافترقنا وبنفسى غصة ولوعة .. لقد وددت لو أستطعت أن أحتويه بين ذراعى وأخفى رأسه فى صدرى لادفع عنه احزانه وأشجانه .. ولكن الحياء كان يمنعنى .

ولم يقعدنى اليأس من أن أدفعه الى الكتابة ، فحاولت أن أعيد الكرة .. ولكن من طريق آخر .. لقد كنت أعلم أنه لا يعصى لأمه امرا ولا يرد لها طلبا ، فذهبت ذات صباح الى داره وهو غائب فى عمله ، وطرقت الباب فلقيتنى سيدة سمحة الوجه قد اتشحت بالسواد .. وأدخلتنى فى غرفة الاستقبال وجلست السيدة أمامى مطرقة تنتظر ان أبدأ بالحديث ، وأنبأتها فى اقتضاب بما أتيت من أجله ورجوتها أن تعاوننى فى حمله على أن يستمر فى الكتابة ، فحرام أن تقتل هذه العبقرية فى مهدها وصمتت السيدة هنيهة ثم اقتربت منى ، وقالت :

– يابنية ، انى أشكر لك هذا الشعور نحوه وهذا الاهتمام به ، ولكنك مازلت صغيرة بعد .. واننى أكثر منك تجربة فى الحياة ، واننى لا أتمنى له شيئا الا أن يبتعد بنفسه عن الكتابة والأداب .. ماذا تظنينه ليصبح مهما بلغ من النبوغ .. أيصبح كأبيه ؟ .. لقد عاش عمره فقيرا ومات دون أن

يترك لنا ما نستطيع العيش به .. ولا أعلم ماذا كان مصيرنا لولا ذلك المعاش الذى خلفه لنا من وظيفته الحكومية التى كان يزدريها ويحتقرها .. ماذا أفاد من الأدب والكتابة ! حتى الذكرى قد بخلوا بها عليه .

وصدمنى حديث السيدة ، فلم أكن أتوقع منها مثل ذلك الرد . وحاولت أن أزيل من نفسها ذلك التشاؤم والتحامل ولكنى كنت كالنافخة فى رماد .

ومضت مدة بعد ذلك .. ولقيت الفتى مرة أخرى .. وكان مر الأيام قد خفف قليلا من حزنه ولوعته ، فوجدته أكثر بشاشة واستطعت أن أقنعه بأن يحاول الكتابة فى لحظات فراغه .

وحلت عطلة الصيف وسافرت الى بلدتنا بعد أن أقسم لى أننى لن أعود الا وأجده قد أتم القصة .. وفعلا .. صدق الفتى وعده .. فلم تكد العطلة تنتهى وأعود الى القاهرة .. حتى وجدت القصة قد انتهت .

وصمتت الفتاة هنيهة .. ولمحت فى عينيها دمعة تترقرق ثم استأنفت :

– لقد وجدت القصة قد انتهت .. ولكنه هو أيضا كان قد انتهى .. لقد أفرط الفتى فى اجهاد نفسه .. حتى أصيب بالتهاب فى الرئة .. وكان السهر قد أنهكه وأضعف من مقاومته للداء .. ولم يحاول هو كذلك أن يستريح ولم يرحم نفسه ، فلم يرحمه الداء .

ولا أظن هناك من الألفاظ ما أستطيع ان أعبر به عما أصبت بفقده .. لقد أحسست بيأس من الحياة ، وذكرت قوله : « أن هذه الحياة لابد أن يضحى فيها البعض لكى يسعد البعض الاخر » .. ولكنى أيقنت الان أن الحياة كلها أحقر من أن يكون فيها ما يستحق التضحية .

ولم أستطع فى مبدأ الأمر ان اذهب لتعزية أمه .. ولكنى تمالكت نفسى أخيرا وذهبت للقائها .

سبحانك اللهم .. تلهم الصبر عبادك المؤمنين .. لقد قابلتنى السيدة فى صمت ، وحاولت أن أعزيها ببضع كلمات ، فقالت بصوت يملؤه الايمان : الحمد لله !

ثم اختفت هنيهة وعادت تحمل الى حقيبة الفتى ودفعتها الى وهى تهمس :

- لقد قال لى : أنه أتم القصة .. خذيها يا بنيتى فأنت أولى بها .

وصمتت الفتاة ، فمددت يدى وشددت على يدها ونظرت الى هذه الكومة من الورق البالى وحملقت فى شك :

- أتظنين أنك ستستطيعين بعثها الى الحياة ؟

- أدعو الله أن يعيننى على ذلك .

ومر الزمن وأنا أبصر الفتاة تكتب وتكتب .. حتى خيل الى أنها ستفنى عمرها فى الكتابة .. ثم فرقتنا الأيام حتى أبصرت الكتاب فى ذلك المساء ، فأعاد الى رأسى قصتها .

وأمسكت بالكتاب الأنيق أقلبه بين يدى ، وأقبلت على قراءته بلهفة وشوق .. فلم أتركه الا وقد أتيت على آخره فاذا به أبدع ما قرأت ، وأحسست بنشوة تملكتنى بعد قراءته ، وشعرت بأن فيه نوعا من السحر ، والله أعلم بمبعثه ، أهو الفتى العبقرى ؟ أم الفتاة التى بعثته الى الحياة ؟

★ ★ ★

شاة وقصاب

الشاة لا تتوقع من القصاب ذبحا ولا غدرا .. والقصاب لا يرى نفعه الا فى الذبح والغدر .. وتموت الشاة وليس فى قلبها حقد عليه ولا ضغينة ، ويبقى القصاب .. يفتك بغيرها من الشياة .. النقيات القلوب .. الطاهـــــــرات النفـــــــوس .

هذه القصة مهداة الى الأستاذ « ميخائيل نعيمه » .. على غير معرفة بيننا ولا سابق لقاء .. وان كنت من جانبى قد لقيته أجمل لقاء على صفحات كتابه « كرم على درب » .. وصافحته بخاطرى بين سطوره وكلماته .. أو بين عناقيده وحباته .

اليه أهدى هذه القصة .. فقد أوحى الى بها قول له : « رأت الشاة قصابها يشحذ سكينه فقالت له : أحترس يا سيدى من أن تجرح أصابعك » .. فقد مس منى ذلك القول موضعا حساسا .. وأثار فى قلبى شعورا بالحزن والشجن ، وقلت لنفسى كم بيننا فى الحياة من شاة وقصاب .. خلا قلبه من كل عطف وبر .. الشاة لا تتوقع من القصاب ذبحا

ولا غدرا ، والقصاب لا يرى نفعه الا فى الذبح والغدر ، وتموت الشاة وليس فى قلبها حقد عليه ولا ضغينة ، ويبقى القصاب يفتك بغيرها من الشياه .. النقيات القلوب ، الطاهرات النفوس .

ووجدتنى أتريث أمام ذلك القول ، وأمعن فيه الفكر .. ثم أقول لنفسى .. أكتب ! من يدرى ؟ فقد يكون فى قصتك عزاء لكل شاة .. وعظمة لكل قصاب !

أنا فى بيت « الشاة » .. بيت قديم فى حى الحلمية .. لا يفصله عن البيت الذى أقطنه سوى حارة ضيقة .. ولم يك قد خطر ببالى أن أزور البيت من قبل .. بل وما فكرت قط طول تلك المدة أن أسأل عمن يقطنه .. لأنى شخص سلبه الله خاصية حب الاستطلاع .. حتى كان ذات يوم فطرق بابى طارق .. واذا هو خادم عجوز تطلب الى فى استيحاء أن أقرضها بعض النقود لتبتاع به دواء لسيدتها المريضة طريحة الفراش .. التى نقطن البيت المجاور .

ولم أملك ، فأسرعت باعطائها ما طلبت .. فقد كانت الطريقة التى طلبت بها النقود تجعل أى امرىء - مهما بلغ به البخل - لا يكتفى بأن يجيبها الى ما طلبت .. بل يأسف لأن الله لم يلهمه أن يعطيها النقود قبل أن تطلبها .. فيوفر عليها مشقة الطلب وعناء الاستجداء .

ولم يكن بد بعد ذلك من أن أقوم بزيارة للجارة المريضة ، فقد دفعنى عامل المروءة الا أنتظر حتى يطلبوا منى المساعدة مرة أخرى .. بل أذهب أنا لأعرضها ، ولأقوم بواجب الجيرة .

ودخلت البيت .. فوجدته موحش المظهر بالى الأثاث .. ولقيتنى العجوز مرحبة وأجلستنى فى حجرة يقولون أنها لاستقبال .. وسألتها عن حال سيدتها فأنبأتنى بأنها ما زالت مريضة .. ولم أمكث سوى بضع لحظات ، ثم نهضت للانصراف .. وسألتها فى صوت خافت خجل أن كانت فى حاجة الى شىء من النقود .. فأبت اباء يشوبه الحياء والحيرة ،

فلم أجد خيرا من أدس فى يدها قبضة من النقود .. وتركتها وانصرفت .

وتكررت زيارتى دون أن أرى المريضة نفسها .. وأنست الى العجوز واطمأننت .. وبدأت تفضفض بالحديث وكأنما وجدت فى الحديث متنفسا لها فأنبأنتى فيما قالت ذات مرة .. وقد بدا عليها كثير من الأسف الممزوج بالدهش :

- أكثر ما يؤلمنى يا سيدى أن لديها من النقود ما يكفينا مذلة الاقتراض ، ولكنها ترفض أن تعطينى شيئا لأبتاع لها الدواء ، فاضطررت أن ألجأ للبك وادعى أمامها أن الصيدلى قد قبل أن يعطينا الدواء .. على أن نسدد ثمنه فيما بعد .. ولولا ذلك لما قبلت تناوله .

وأصابنى دهش شديد .. ولكنى حاولت جهدى اخفاءه ، وأبديت للعجوز أن من الخطأ الاقتراض بالمذلة . فما من انسان الا ويحتاج الى معونة الآخر .. فى أى صورة وعلى أى وجه .

وساد الصمت هنيهة .. ووجدت حافزا يدفعنى الى السؤال عما يحدو بسيدتها الى أن تبخل على نفسها بشراء الدواء .. غير أنى ترددت ، فقد خشيت أن تظن بسؤالى أنى نادم على اقراضها .. ولكن ترددى لم يدم طويلا .. فقد أحسست - بالرغم عما قلته من عدم ميلى الى الاستطلاع - بلهفة الى معرفة السبب .. وبرغبة شديدة فى السؤال .. وأخيرا سألت .

ولم تحب العجوز للوهلة الأولى .. بل بدا عليها كالتى تجمع شتات أفكارها ، أو كأنما الاجابة على سؤالى تحتاجها الى فرط روية وتدبر .. وأخيرا أجابت :

- بودى لو قصصت عليك القصة كلها .. فهل لديك صبر على سماعها ؟

وأشرت لها برأسى ، فبدأت تقص :

– نشأت فى بيتها منذ نعومة أظفارى ، وهو بيت عريق كريم المحتد .. وخدمتها منذ مولدها حتى يومنا هذا .. فما فارقتها لحظة واحدة وما زلت أنكرها رضيعة أهزها بين يدى .. وقد كنت وقتئذ فى حوالى العاشرة .. وكنت أراها يا سيدى أجمل خلق الله .. ففى كل دور من دور حياتها كانت نموذجا للجمال .. كانت أبدع طفلة .. وأجمل صبية .. وأشد الفتيات فتنة وسحرا .

اجل .. انى لأبصرها أمام عينى أشبه بزهرة يانعة أو ثمرة ناضجة .. كل ما فيها مثالى لا هنة فيها ولا خطأ .. خلقها ربما فسواها .

واذكر كيف تهافت عليها الشبان وقتئذ .. وهى ما زالت فى الخامسة عشرة ، وكيف كان أبوها يضيق بهم .

ومرت الأيام .. والفتاة تزداد فى كل يوم سحرا وفتنة .. حتى كان ذات يوم ففاتحها أبوها بالزواج من رجل كان يظنه أصلح الناس لها .. ولكن الفتاة لم تجبه الا بالصمت ، وبدا عليها وجوم شديد .. ثم عادت الى حجرتها ووصل الى أذنى صوت كالبكاء .

وكنت أنا أعلم الناس بما خفى من أمرها .. كنت أدرك تماما سبب ما أصابها من حزن ، وكنت أحس مثلها بأن ذلك القول من أبيها كان صدمة شديده لها .. وأنه قد هدم أحلامها الذهبية .. لأن الفتاة كانت عاشقة !

ولست أود الخوض فى تفاصيل ذلك الحب وكيف بدأ ، فلست أظن به شيئا من الغرابة ، اذ أنه كان صورة لا تختلف كثيرا عما نرى ونسمع من قصص الغرام التى لا تكاد تتباين الا فى التفاصيل التافهة .

ولم يكن من العسير على الأب بعد ذلك أن يكشف خبيئة نفس الفتاة .. بل لقد علم أيضا بالفتى الذى تعلقت به فتاته ، وجعلته رجلها المنتظر .. وبالرغم من أنه لم يجد فيه ما يرضى رغبته هو .. أو يحقق

الآمال التى يرجوها لابنته .. فقد أظهر ترحيبا به وأقنع نفسه بقبوله ما دامت ابنته ترى فيه سعادتها وهناءها .

وتم الزواج .. وانتقلت مع الفتاة الى بيتها الجديد .. وقد أحاطنا جو النعيم ممتع لذيذ .. وبدت الحياة جميلة مزدهرة .. ولست أظننى فى حاجة الى وصف ذلك السحر الذى يفيض من وكر عصفورين جميلين جمعهما الحب وألف بينهما رباط الهوى .. فملأ المكان شدوا وترنيما .. وفاضت عليهما سعادة لو أتيح مثلها للحياة الدنيا لبرات من شقائهـا .

مرت الأيام وكلنا راض مغتبط ، وأنا أعجب فى نفسى لذلك الضوء الذى يخلعه الحب على الحياة الانسان .. حتى أحسست فجأة بأن ذلك الضوء قد بدأ يخبو ، وأن البقية الباقية منه قد أخذت طريقها فى مهاوى الفناء .. لتترك الدار فى وحشة سائدة .

وحتى هذه المرحلة – مرحلة الظلمة التى تسربت من خلال ذلك السناء المشرق والضوء البراق – لست أرى فيها أيضا كثير غرابة .. فما أظن هناك مشعلا أضاء الا والخمود مصيره ، وما أظن ذلك الاشراق فى ربيع الحب انذى أضاء المكان حينا وظل بمنجاة من الغروب .

أجل .. ما كان عجيبا أن تخمد ثورة الحب وتهدأ ، بين عاشقين مضى على زواجهما فترة ليست بالقصيرة ، ولكن العجيب أنها هدأت من جانب واحد وخمدت فى نفس واحدة ، فأذا بى أرى الشعلة التى انطفأت فى نفس أحدهما وكأنما انتقلت الى صاحبه فضاعفت ما بالنفس الأخرى ، واذا بى أرى الرجل يتبدل أمره ويتطاير من قلبه الحب ، فحل محله الجمود والملل والضيق والتبرم ، واذا بى أراها تزداد له حبا ، وبه ولعا وولها .

ولم أحس فى بداية الأمر بذلك التطور الذى طرأ على حياتهما .. ولم ألمس ذلك الحزن الذى مسها ، فقد كانت صبورا كتوما .. حتى بدأت تطول غيبته عن الدار .. وبدأت أحس ببكائها الصامت فى سكون الليل .

وفى ذلك الوقت مات أبوها ، فورثت عنه الكثير من المال وخيل الى أن الزوج قد بدأ يرق لها بعض الشيء ، لست أدرى ، أكان ذلك محاولة منه لتخفيف لوعتها على أبيها ؟ أم كان له فى ذلك مآرب أخرى ؟ الله أعلم ! .

على أية حال ، لم تكد تمضى على وفاة الأب فترة قصيرة حتى اشترى الزوج بأكثر أموالها دارا كبيرة أشبه بالقصور ، أضحى هو صاحبها ، ولم تجد هى فى ذلك حرجا ، فقد كانت تعتبره كنفسها ، وكانت لا تجد فارقا بين شخصيهما ، فماله لها ، ومالها له .

وفى الدار الكبيرة بدأ الرجل حياة عجيبة ، لا أظنك بمصدقها لو سردت عليك تفاصيلها .. فما أظن هناك امرأة ذاقت من العذاب مثل ما ذاقته المسكينة .. وأقصد العذاب النفسانى القتال الذى يسرى فى النفس كما يسرى السم فى الجسد ، لا فرق بين الاثنين سوى أن السم يميت لساعته .. أما العذاب النفسانى فليس الا موتا بطيئا .

تصور يا سيدى أن الرجل لم يكفه ما استغرق فيه من اللهو خارج الدار .. ولم تكفه عشرات العشيقات اللاتى كان يقضى الليالى بأكملها بين أحضانهن تاركا الزوجة الأمينة الوفية . جالسة تنتظره على مقعد فى جوف الليل حتى ينهكها التعب والسهر فتلقى برأسها على المنضدة وتروح فى غفوة حتى أوقظها وأقودها الى فراشها .. وهى لا تشكو ولا تتبرم .. ولا تذكره – بالرغم من هذا – بسوء ، ولا تسوق اليه اذا ما لقيته فى الصباح لوما ولا تأنيبا ، بل تلقاه بقدر ما تستطيع من البشر والبشاشة .

تصور يا سيدى أن الرجل لم يكفه كل هذا .. حتى بدأ يخصص فى الدار جناحا لمتعته ! لا تدهش يا سيدى .. فما قلت سوى الصدق .. أجل .. لقد بدأ يحضر عشيقاته الى الدار ويفرد لهن حجرات خاصة .

تسألنى .. وماذا فعلت المسكينة ؟ .

لا شيء .. لا شيء البتة .. لقد استمرت تروى من ماء أجاج .. وتطعم المر والحنظل ، وهى صابرة راضية . أو هكذا كانت تبدو .. وأن كنت لا أشك فى أن قلبها يحترق ، بل أغلب ظنى أن قلبها قد أضحى فحمة سوداء .. لقد كانت تقول انها تحبه ، وأنها لابد أن تستر عليه ، وتخفى فضائحه ، وكانت تقول انها نوبة طيش .. سيزيلها مر الزمن .. وأن واجبها هو أن تصبر وتحتمل .. حتى تزول النوبة ، ويعود كما كان .. انها امرأة عجيبة .. امرأة ليست من البشر فى شيء .. فما أظن أية امرأة سواها كان يمكنها أن تحتمل مثل ما احتملت .

وأخيرا .. انتهى الأمر نهاية عجيبة .. وزالت النوبة من الرجل .. نوبة الطيش التى كانت تقول عنها انها لابد زائلة .. ولكن زوالها كان بطريقة لا تخطر لها ببال .

لقد كف الرجل عن عشيقاته .. ولكنه استبدل بهن امرأة واحدة .. زوجة جديدة !

انى لأحس فى حلقى بغصة .. بأن مجرد الذكرى تقطع نياط قلبى ، وتفرى كبدى .. فما بالك بما فعله الواقع .. فى نفسها وفى نفسى !

انها لم تثر ولم تغضب فما كان مثلها ليثور قط ، كل ما فعلته أنها أغلقت على نفسها الحجرة حتى حل الظلام .. ثم رأيتها تقبل على متسللةوقد جمعت متاعها فى حقيبة كأنها خادمة طريدة .. وأنبأتنى بأنها ستغادر الدار لأنها لا تحتمل البقاء .. وانهمرت الدموع من عينى .. وتمنيت لو استطعت أن أذهب الى الرجل فأمزق جلده اربا .. ولكنى لم أملك سوى أن أتبعها .. وخرجنا نتسلل فى جنح الظلام .. كأننا شبحان من أشباح الليل .

وصمتت العجوز ، وطال بها الصمت وهى مطرقة الى الأرض .. واحترمت صمتها هنيهة .. ثم قلت أستحثها على اتمام الحديث :

– وماذا حدث بعد ذلك ؟ .

فهزت رأسها ببطء ثم أجابت بصوت خافت :

– لا شيء .. ليس أكثر مما ترى .. لقد لجأنا الى هذه الدار القديمة ثانية .. وهى كل ما بقى لها مما ورثته عن أبيها .. واستقر بنا المقام فى هذه الدار الموحشة المظلمة والوحدة الكئيبة

وبقى الرجل مع زوجته الجديدة .. ربة القصر الواسع الأرجاء .. الشامخ البناء !

وحاولت العجوز أن تعود مرة أخرى الى صمتها واطرافها .. بيد أننى تذكرت السؤال الذى من أجله قصت على القصة .. ورأيت أنها لم تجبنى عليه بعد ، بالرغم من هذه القصة الطويلة التى قصتها على ، فلم أجد بدا من أن أعيد السؤال مرة أخرى :

– ولكنك لم تخبرينى بعد عما يحدو بسيدتك الى أن تبخل على نفسها بشراء الدواء ؟

– حمقاء .. بلهاء .. أو قل مجنونة ان شئت .. أتصدق يا سيدى أنها بعد كل ما حدث ما زالت تحبه .. وما زال فى قلبها حنين له وعطف عليه . لقد حل بالرجل ما كنت أتوقع حدوثه .. لقد ثأرت الزوجة الجديدة لنا منه .. سلبته ماله وأفقدته كل ما يمكن أن تفقده اياه .. لقد أضاعت كل ما حاولت سيدتى أن تصونه .. لقد أصبح القصر قصرها هى وأصبح الرجل لا يملك الا ما تجود به عليه .

وأخيرا وبعد طول غيبة .. أقبل علينا ذات يوم .. أتدرى لم أقبل ؟ ليستجدينا بعض النقود ! لا ليسد رمقه ، وأنما لينال من متعه بعض ما حرمته زوجته الجديدة .

ولتتخيل يا سيدى أنها أعطته كل ما معها .. وهى التى تعيش عيشة

الكفاف ، فى هذه الحجرات المظلمة والأثاث الممزق البالى .. هى التى لا تعتمد فى حياتها الا على أجر الشقة العليا وهو بضعة جنيها لا تكاد تكفينا .. أجل لقد غفرت له وأعطته كل ما تملك .

ثم تعود بعد ذلك ان يأتى بين آونة وأخرى ليأخذ منها ما تستطيع اعطاءه اياه .. حتى أصابها المرض .. ورقدت طريحة الفراش .. وباتت فى أشد الحاجة الى الدواء ومع ذلك فهى ترفض شراءه .. اتدرى لم تبخل على نفسها بشراء الدواء ؟ كى تحفظ له النقود حتى لا يصيبه ضيق وغضب اذا لم يجد معها نقودا ! مجنونة هى ولا شك !

وسمعت العجوز .. فتذكرت الشاة وتذكرت القصاب وتذكرت خوفها عليه من أن يجرح أصبعه وهو يشحذ سكينه لذبحها ، وقلت لنفسى ما أشد الشبه ، وحاولت أن أمنع دمعة همت بأن تطفر من عينى .. ثم هممت بأن أقول للعجوز شيئا على سبيل العزاء .. ولكنى سمعت على الباب طرقا .. وقامت العجوز لتفتح ، ودلف من الباب رجل ، أحسست بوحى خفى أنه لابد أن يكون القصاب نفسه .. ولقد كان هو بالفعل .. وكان أكثر ما لفت نظرى منه احمرار فى عينيه وآثار تعب أو مرض بادية على وجهه .

وحيانى الرجل بيده ثم دخل الى حجرة المريضة .

واستأذنت العجوز وعدت الى بيتى مكررا عليها أن اننى على استعداد لكل ما تطلب .. فأبدت أبلغ آيات الشكر والحمد .. وأنبأتنى بأنه ليس أمامها ملجأ سواى .

ولم تمض نصف ساعة حتى طرق الباب وبصرت بالعجوز وقد بدا عليها كثير من الفزع والذعر .. فهبطت اليها وسألتها متلهفا :

– أطرأ على سيدتك شىء ؟

– ليس على سيدتى ، بل عليه هو !

– من ؟ .

– سيدى ! زوجها ! .

وأسرعت معها الى الدار فوجدت الرجل جالسا على أريكة أمام فراش المريضة .. التى تركت فراشها .. لتلقاه بين ذراعيها وقد بدا عليها جزع شديد .. وكان الرجل فى اغماء تام .. فأمرت الخادمة بأن تفك له ثيابه ، وأسرعت باستدعاء الطبيب .

وفحصه الطبيب ثم أنبأنى أنه قد أصيب بنزيف فى المخ ، وأنه يجب أن يرقد فى مكانه وأن توضع على رأسه طاقية ثلج .

ولكن الموت كان فى عجلة من أمره .. فلم ينتظر حتى نحضر طاقية الثلج ، ووفر علينا مشقة التمريض ، وفاضت روح الرجل بعد ساعة .. أو بعض ساعة .

ومات الرجل بين ذراعى امرأته الوقية الطيبة ، وخرج الى جدثه من بيتها المتواضع القديم .

ولم تمض بضعة أيام حتى أقبلت على العجوز لتودعنى قائلة :

– انها ستعود هى وسيدتها الى القصر .

وسألتها فى دهش :

– والمرأة الأخرى ؟

فأجابت بلهجة لا تخلو من الشماتة :

– لقد شب فى حجرتها حريق أودى بها والحقها بالرجل .

يا للعجب ! لقد هوى القصاب ، واستنقذت الشاة ليت لكل قصاب فيه عبرة .

★ ★ ★

خبايا الصدور

آه من هؤلاء البشر .. وآه من خبايا صدورهم .. لو استطعنا أن نخترق حجبها .. لولينا منهم فرارا .. ولملئنا منهم رعبا .

قلت لصاحبى :

– يخيل الى أن مهمة كاتب القصة فى عصرنا هذا قد أضحت مهمة شاقة .. فهو لا يجد من حوله مادة دسمة يغذى بها خياله .. فنحن فى عصر برود وجمود .. ليس فيه من الحوادث ما يلهم القصة ويوحى بالكتابة .. وأغلب ظنى أن مهمة اسلافه من كتاب القصة فى العصور السابقة كانت أسهل كثيرا .. حيث كانت الحياة مسرحا للحوادث المثيرة والمآسى المروعة .. التى تهيىء لهم مرتعا خصيبا يرتعون فيه بأذهانهم وأقلامهم .. ويسجلون لنا عنها قصصا رائعة .. لأن خير ما كتب الكتاب هو ما استوحوه من باطن الحقيقة وما صوروه من صميم الواقع .

وقبل أن يجيب صاحبى .. رأيته قد انتصب واقفا ومد يده مصافحا

امرأة فى منتصف العمر قد أقبلت عليه ، وقدمت اليه رجلا فى رفقتها قالت انه زوجها ، وألقى كل منهما الى الآخر ببعض الكلمات التافهة التى يقولها الانسان عندما لا يجد ما يقوله ، ثم ودعته بابتسامة رقيقة ، وانصرفت وزوجها فى سبيلهما ، واتخذ صاحبى مقعده بجوارى مرة أخرى .

وانتظرت أن يقول شيئا عن المرأة .. ولو اسمها .. ولكنه لم ينبس ببنت شفة ، فلم أجد بدا من سؤاله :

– ترى من تكون السيدة ؟

وبدا على صاحبى شرود الذهن .. وأجابنى بعد فترة سكون دون أن يكلف نفسه مشقة النظر الى :

– انها دفاع عما اتهمت به عصرك من ركود وجمود .

ولم أستطع أن أفهم مايقصد للوهلة الأولى فسألته :

– لم أفهم بعد ! أفصح قليلا .

– لست مسئولا عن غبائك .. لقد كنت ترمى عصرك بخلوه مما يلهم القصة ويوحى بالكتابة وفى صدر هذه المرأة الهادئة المظهر .. قصة تكذب سوء ظنك بعصرك .. وتلقى عليك تهمة البرود والركود أن لم تخرجها لقرائك كما هى بحذافيرها وتفصيلها .

وبدأ صاحبى يسرد القصة .. قال :

– رأيتها أول مرة ، أرملة حديثة العهد بالترميل .. وكانت فى الثانية والعشرين ، ولم يكن جمالها من ذلك النوع الأخاذ الذى يبهر البصر .. ومع ذلك فقد كانت بها عذوبة ورقة ترتاح اليهما النفس ، وكان أجمل ما فيها شعرها المسترسل ، وعيناها الزرقاوان ، وأسنانها الصغيرة الناصعة البياض ، وبشرتها البيضاء النقية .. كانت المرأة فى مجموعها مخلوقا

لطيفا يسر المرء أن يجالسه ويتمتع بسماع حديثه والنظر اليه .

وكانت تعيش مع أمها على دخل يهيىء لهما حياة هنيئة لينة ولم تمض مدة على وفاة زوجها حتى بدأ العشاق والمعجبون يلتفون حولها .. ولكنها كانت تصدهم فى رفق ، وتخبرهم أنها زاهدة فى الزواج مرة أخرى .

ولكن واحدا منهم كان أشد اصرارا .. فقد كان بالأرملة الجميلة صبا مولعا ، وكنت أعرفه معرفة طفيفة .. من ذلك المنتدى الذى تعودت الجلوس فيه . وكنت أعرف عنه ولعه الشديد بلعب « البوكر » . كان شابا صغيرا على شىء كثير من الوسامة والأناقة .. تبدو عليه مظاهر الثراء .. وأن كنا نعلم جميعا – فيما بيننا – انها لا تعدو المظاهر .. فما كان أهله يملكون كثيرا ولا قليلا .. اذ كان كل ما تبقى لهم من ثروة أسرتهم الكبيرة المعروفة لا يعدو تلك الافدنة القليلة وتلك الدار الكبيرة الكائنة فى احدى مديريات الوجه البحرى التى اعتكف فيها أبوه .

ولم أكن قد رأيت أباه ، ولكنى سمعت عنه ، فقد كان أحد كبار الرجال ذوى الأسماء الرنانة .. وكان يشغل منصبا كبيرا فى السلك السياسى .. وكان أبى يعرفه معرفة جيدة ، وأذكر أنه قال لى عنه ذات مرة :

– أنه أمرؤ عجيب .. فما رأيت رجلا تجسمت فيه مظاهر النبل وكرم المحتد ، كما تجسمت فى هذا الرجل .. انه من ذلك النوع الذى تحس بأنه منحك منحة بمجرد أن يحييك ويقول لك « كيف حالك ؟ » . لقد أضاع كل ثروته فى اللعب والنساء .. ومع ذلك تراه كما هو .. بالمظهر نفسه وبنفس العزة والاباء .

وسألت عن عمره فأجاب :

– أظنه فى التاسعة والأربعين... ومع ذلك أستطيع أن أجزم أنه ما

زال أجمل رجل رأيته فى حياتى .. لقد كان شديد الجاذبية للنساء .. اجتمع له كل ما يفتنهن .. لطيف المعشر ، حلو الحديث .. وحتى الآن ما زال محتفظا بذلك القوام الفارع الممشوق .. فلم يصبه انحناء ولا ترهل .. لقد أبيض شعره ولكنه ما زال كثيفا لامعا كما هو .. وظهرت بعض التجاعيد تحت عينيه ولكنهما مازالتا تبرقان كعينى طفل .. وما زالت الضحكات الحلوة تشيع على كل وجهه .

ومرت الأيام وأواصر الصداقة تزداد بين الفتى والسيدة الصغيرة .. وذات يوم دعاها وأمها لزيارة دارهم الكبيرة حيث يقطن أبوه .. وأغلب الظن أن الفتى كان يريد أن يعرضها على أبيه .. الذى لم يكن يميل الى مثل هذا الزواج .. فقد كان يريد لابنه أكثر من أرملة متوسطة الحال .. كان يريد فتاة ثرية تستطيع أن تعين ابنه بمالها على أن يحيا تلك الحياة التى تعودها .

وعقب الغداء جلس الأب والأم وحيدين فى حديقة الدار الواسعة المهملة ، وقال الرجل للسيدة :

– الواقع يا سيدتى ان ابنتك آية فى الجمال .. ولم يعد يدهشنى الآن ان يقع الفتى فى حبها .. فانها تستحق الحب .. ولأصارحنك القول اننى كنت أوثر ان يتزوج ابنى امرأة أوفر مالا .. ولكنى لم أكد أراها حتى أدركت أنها تستحق أن يضحى المرء من أجلها بكل شىء لديه .. واصبح لا يسعدنى شىء قدر أن تقبل زواجه .

وفى هذه اللحظة كان الفتى يعرض زواجه على المرأة الصغيرة فى ناحية أخرى من الحديقة . وبعد هنيهة أقبل على أبيه يزف اليه نبأ خطبته .

وتم الزواج .. وذهبت لأهنئهما فى الطبقة الانيقة التى استأجرها فى الزمالك .. وكان يلوح جليا ان الفتى مازال مولعا بصاحبته .. فقد بدا فى عينيه بريق الحب .. ولكنى لم أستطع أن أتبين الى أى مدى كانت تبادله

الحب .. فقد كانت من ذلك النوع الذى لا تظهر مشاعره واضحة على وجهه ، وان كنت لم أر هناك ما يمنع من أن تبادله الحب نفسه .. فقد كان فى الفتى كل ما يجذب النساء اليه .. جمال ، وشباب ، ومرح ، ورقة حديث .

ومرت الأيام فأخذت سحب الحب تنقشع عن رأس الفتى ، وبدأ ينغمس فى اللعب .. ولم تمض فترة قصيرة حتى كان قد استنفد ما كان مع السيدة من مال .. وأخذ يستدين من هنا وهناك .

ووجدت الزوجة أن خير ما تفعل لتحافظ على كيانهما البيتى هو أن تلجأ به الى دار أبيه ، فتسقط عن عاتقهما تلك التكاليف الباهظة التى يدفعها ثمنا للظهور بالمظهر اللائق ، وتبعد به عن ذلك الوسط الملوث والحياة المليئة بالخمر والميسر ، ولم يكن أيسر عليها من ذلك فقد أضنتها تلك الحياة الصاخبة ، وكان بنفسها ميل الى الهدوء والعزلة .

ولم يمانع الفتى بادىء ذى بدء ، ورحب الأب بالزوجين الصغيرين فقد ملأ البيت بهجة وحبورا .. وبدأت السيدة الصغيرة تتخذ مكانها كربة للدار ، فأعادت تنظيمها وتجديدها ، وتعهدت الحديقة بالعناية والتنسيق ، فاذا بالدار تعود الى سابق رونقها فقد كانت السيدة سليمة الذوق خبيرة بالازهار والحدائق .

وسر الفتى أن يرى ذلك الانسجام بين زوجته وأبيه ، فقد كان يحب كليهما ، وكان انهماكهما سويا فى تجديد الدار وتنسيق الحديقة ، يتيح له بين آونة وأخرى أن يفر الى القاهرة ليسلى نفسه بالانغماس فى اللعب مع صحبه ، وعلى مر الأيام أخذت فترات الفرار تكثر وتطول .

ومرة واحدة – ودون أن يدرى لذلك سببا ولا علة – بدأ الشيطان يهمس فى نفسه ، ويوسوس فى صدره ، وتملكته ريبة غامضة وشك مبهم ، لم يستطيع أن يحدد بالضبط ما هو ، ولكنه كان يخيل اليه أن زوجته

لم تعد تأبه له كما كانت من قبل ، وأن أباه قد أخذ يضيق به ذرعا ، فقد بدأ يحس بأنه لم يعد له موضع فى أحاديثهما ، وأن وجوده قد أضحى غير مرغوب فيه وبالرغم مما كان يعلمه الفتى عن أبيه وماضيه مع النساء ، فان شكوكه كانت من الفظاعة فى حد لا ينبغى أن يسمح لها بالتسرب الى نفسه ، على أنه كان يستطيع فى بعض الأحيان أن يلحظ نظرات عابرة بين الاثنين ، لو رآها بين غيرهم لقال (عشاق) ، ولكن بين أبيه وزوجته فحاشا لله ، ان ريبته لا يصدقها عقل بشرى !

ورأى الفتى أن خير ما ينقذه من أوهام نفسه .. هو أن يعود بزوجته الى القاهرة فيباعد بينها وبين أبيه .

وذات يوم أنبأهما أنه قد عزم على أن يعود للسكنى فى القاهرة مرة أخرى ، وأن عليها أن تعد نفسها للسفر .

ودهشا كلاهما ، وأجابه أبوه أنه ليس لديه من المال ما يعطيه له لينشىء بيتا آخر ، وأجابت الزوجة : ان القليل الذى كان لديها قد استنفده فى اللعب .

وصرخ الفتى غاضبا ، وأجابها أنه قد أخطأ بزواجه من ارملة ! ووجمت الزوجة وصبغها الأصفرار ، وصاح به أبوه ينهره :

– يجب أن تعلم كيف تخاطب سيدة !

– لست فى حاجة الى دروسك بعد .

وخرج الفتى مغضبا من الحجرة .. وسافر الى القاهرة ولم يعد الا فى اليوم التالى .. فقابلته زوجته بصداقتها وبشاشتها التى عودته اياها كأنما لم يحدث شىء .. أما الأب فما حال عن بعض برودته وفتوره .. وأن لم يمر على لسان أحد منهم ذكر لما حدث .

ولكن الأمور سارت بعد ذلك من سيىء الى أسوأ فقد ازداد التوتر

بين الابن وأبيه ، ولم يعد يحاول مبارحة الدار بعد ذلك ، فزادت أعصابه توترا .. وذات يوم ساء السيدة هذا الضيق الذى أصابه فسألته ببساطة وبراءة : لم لا يحاول أن يرفه عن نفسه بالسفر الى القاهرة ليرى أصدقاءه بين آونة وأخرى كما كان يفعل من قبل ؟

واعتقد الفتى انها تريد التخلص منه ، فزادت ريبته وعصف به الشك .. حتى انتهى به الأمر الى مراقبتهما والتجسس عليهما .. فتارة يدخل عليهما الحجرة فجأة .. وتارة يتبعهما الى الحديقة .. ولكنه لم يجد بينهما أكثر مما يجد أى زوج بين زوجته وأبيه .

وزادت حالة الفتى سواء ، وبدأت أعصابه تتحطم ، انه لا يستطيع أن يعثر على دليل يؤكد ريبته ، ولا يجد أى أثر لتلك الخديعة التى يتوهمها ، ومع ذلك فهو موقن انهما يخدعانه ، واثق بأن بينهما صلة أكثر البريئة التى يستتران وراءها .

وأحس الفتى بأنه أضحى من فرط الريبة على وشك الجنون .. بل أنه جن فعلا .. فلقد رحل الى القاهرة ذات يوم .. ثم عاد وقد استعار مسدسا من أحد أصدقائه .. لقد نوى ان يقتلهما معا .. فور أن يعثر بأقل دليل يشير الى تلك الريبة التى تنهش قلبه .

ولا أدرى كيف انتهى الأمر بتلك الفاجعة .. فكل ما علمته من خلال المحاكمة أن الفتى دخل على أبيه ذات مرة بقصد تصفية المسألة وانهائها على أى وجه .. ومصارحته بشكوكه كى يضع لها حدا .

وقامت بينهما مشادة عنيفة انتهت بأن أطلق الفتى النار على أبيه وهو فى نوبة غضبه فأرداه قتيلا .. وعندما أدرك ما فعل انهار على جسد أبيه يبكى بجنون كأنه طفل صغير ، وأقبلت الزوجة والخدم .. فوجدوه يهم باطلاق الرصاص على نفسه فأمسكوا به ونزعو المسدس من يده .

وكانت جريمة الفتى هى القتل مع سبق الاصرار ، ولم يكن هناك

أى سبيل للدفاع عنه وانقاذه الا سبيل واحد وهو ذاك السبيل الذى حاول محاميه طرقه عندما أتى مقابلة السيدة الصغيرة .

لقد كنت هناك وقتئذ ، وكانت أعصابهامحطمة تماما ، وأسوا من ذلك أنها كانت حاملا وعلى وشك أن تضع .. وكنت أحاول التخفيف عنها .. عندما دخل المحامى ، وبعد بضع كلمات مما لم يكن بد من قولها ، اتجه الى غرضه مباشرة :

– يا سيدتى .. انك أنت الوحيدة التى تستطيعين انقاذ زوجك .

– أنا ! وكيف ؟

– أعذرينى يا سيدتى ، فأنا أعلم أنه مطلب شائك وطريق وعر .. وأن التضحية التى سأسألك بذلها هى أقصى ما تستطيع امرأة أن تقدمه ، ولكنها السبيل الوحيد يا سيدتى .

وصمت الرجل هنيهة .. ولكنها أجابته بصوت هادىء النبرات :

– استمر .

– السبيل الوحيد لانقاذه .. هو أن تعترفى بأنه كانت هناك بينك وبين المرحوم أبيه علاقات غرامية .

وكدت أصيح بالرجل : يا للمجنون ؟ اى حماقة تلك التى انتابت الرجل ؟

والتفت الى السيدة لأهدىء من روعها ، ولكنى وجدتهاصامتة ساكنة .. وقد أطرقت هنيهة ، ثم رفعت عينيها الى الرجل ولم تزد على ان قالت :

– سأفعل يا سيدى .

وانتهت المحاكمة بتبرئة الزوج وارساله الى المستشفى الأمراض العقلية بعد أن برت السيدة بوعدها وعادت الى العيش مع أمها .

ثم علمت بعد ذلك أنها قد وضعت طفلا .. وبعد شهرين علمت أن الطفل قد مات .. وذهبت لزيارتها فوجدتها شديدة الحزن . فقلت أخفف من لوعتها :

– لا تحزنى فقد رحمه الله .. لقد أخذه قبل أن يعرف أن أباه قاتل مجنون !

وانتفضت المرأة ورفعت عينين حجبتهما سحابة من الدموع وقالت فى صوت مبحوح :

– لم يكن أبوه بقاتل ولا بمجنون .. لقد كان أبوه خير الرجال .. أنى لم أقل فى المحكمة غير الصدق !

وقف شعر رأسى .. ولم أنبس ببنت شفة .. وغادرت المرأة فلم ألقها الا اليوم مع زوجها الثالث .. قانعة راضية .. كأن لم تصدم حياتها حادثة ولا كارثة .

وصمت صاحبى هنيهة ثم أردف كأنه يحدث نفسه :

– آه من هؤلاء البشر .. وآه من خبايا صدورهم .. لو استطعنا ان نخترق حجبها .. لولينا منهم فرارا .. ولملئنا منهم رعبا .

★ ★ ★

صاحبة الحقيبة

ولم يحس الفتى بخيبة أمل ، بل على العكس لقد سره الا تكون المرأة خيرا من ذلك .. وأسرع الى حقيبته فحملها فى يده ، وجذب المرأة بيده الأخرى الى حجرته .. فقد كانت صاحبـــــــــة الحقيبـــــــــة .

ما أشبه حياتنا فى هذه الدنيا بطريق متسع ، رحب الأرجاء ، ساطع الأضواء .. تبدو فيه بين آونة وأخرى منعطفات وأزقة مظلمة ضيقة .. كثيرة الانحناء والالتواء .. والانسان فى هذه الحياة مخلوق عجيب .. اذ ليس فى استطاعته أن يداوم السير فى هذا الطريق المتسع المضىء ، السوى المستقيم .. وهو يرى دائما ما يستهويه فى تلك الأزقة المظلمة .. ويحلو له أن ينعطف بين آونة وأخرى فيخوض ظلماتها ، والفرق فى هذه الحياة بين انسان وآخر ، هو قدرته على العودة سريعا من أزقة الحياة الى طريقها المتسع المستقيم ، وفى قدرته على الا يضل سبيله فيقضي عمره يتخبط فى المنحنيات والمنعطفات ، فلا تعود عيناه تبصران النور .

وما نظن أن انسانا استطاع فى هذه الحياة أن يسلك بنفسه ذلك

الطريق السوى المعبد .. دون ما يحاول مرة .. أو مرات .. ان ينعطف بها من الأزقة .. سواء اكان فى محاولته تلك متسترا أو مكشوفا .. وسواء أكان ذلك منه بجسده أو بذهنه .. فكل امرىء – مهما بدا من براءة ظاهره وسلامة مسلكه – له أزقته التى تفرعت من طريق حياته .. والتى غمر فيها نفسه لحظة أو لحظات ، ووجد فى ذلك الانغمار متعة ونشوة .. ولذة مسروقة مختلسة لم يجدها فى ذلك الطريق الحافل الصاخب .. أجل .. كل امرىء قد ذاق متعة الأزقة ، ان لم يكن بلسانه فبجنانه .. وان لم يكن باللمس فبالحس .. اللهم الا الأنبياء المرسلين .

ولم يكن صاحبنا ليتطاول بنفسه الى زمرة الأنبياء والمرسلين بل كل يعلم تمام العلم أنه انسان كغيره من البشر ، ولكنه كان مع ذلك يعتقد أنه اقلهم انعطافا فى أزقة الحياة .. بل لم يكن ليعتبر انعطافه انعطافا بمعنى الكلمة ، اذ كان كل ما يفعله لا يزيد على ان يمد بصره ليتطلع الى ما فى تلك الأزقة .. ولينعم فيها ببصره وبخياله .. ثم يعاود السير فى طريقه مرة أخرى .

كان يعتقد أن هذا هو أهون الشر وأيسر الخطايا .

وجلس الفتى يستعرض فى ذهنه ما مر به من أزقة فى طريق حياته .. وشرد فيها بصره من نافذة القطار ، وأخذت المناظر تتتابع أمام عينيه فى سرعة خاطفة .

لم يحس الفتى بأنه شرير .. ولم ير أنه اقترف فى تلك الأزقة ما يشينه أو يورثه الندم أو الخجل .. فقد بدأ حياته بحب انتهى بزواج فلم يحد فيه عن الطريق المستقيم .. ومنذ زواجه لم يزد ما صادفه فى طريقه من أزقة على عدد محدود يعد على الأصابع كان يمر بها مر الكرام .. ولم يزل يذكرها تماما ، فقد كان أولها تلك الفتاة الشقراء التى تعود أن يلقاها كل يوم فى طريقه الى عمله .. وابتسمت له ذات مرة .. ثم تحدثا سويا ..

ولم يزد كل ما قام بينهما على ذلك الحديث ، وكان ثانيها تلك الفاتنة ذات الوجه الخمرى المتورد .. التى كان مرآها يحدث فى نفسه هزة ونشوة ، واجترأ مرة على مخاطبتها فجانبته حديثا لينا رقيقا .. ثم عادت وأنكرته ، وثالثها .. ورابعها وخامسها ، وكلها لا تزيد على علاقات سطحية عابرة .. أو اعجاب من طرف لا يحس به الطرف الآخر .

وكان الفتى يتخيل أن تلك الأيام التى قد أضحى عمله يضطره فيها الى السفر الى الاسكندرية بين آونة وأخرى ستكثر من تلك الأزقة فى طريقه ، ولكنه – حتى الآن – لم ير الا طريقا يستقيم على مدى البصر .. حتى أحس بالملل يتطرق الى نفسه .. وبات يتمنى لو يسنح له منعطف يزج بنفسه فيه .. خلال تلك الأيام التى يشعر فيها ببعض الحرية بعيدا عن امرأته .

وعندما وصل القطار .. كان الليل قد أرخى سدوله .. فقام الفتى وأدلى بحقيبته من النافذة الى أحد الحمالين الذى حملها مع بضع حقائب أخرى وسار بين الجموع المتحركة الى الخارج .

وأشار الفتى الى احدى عربات الأجرة .. وبعد لحظات كان الحمال يدفع بالحقيبة فى داخلها .. وتحركت العربة تحمل الفتى الى الفندق الذى تعود النزول فيه .

وأحس بالكثير من الراحة حينما ضمته الحجرة الهادئة الأنيقة ، ولم يكن فى نيته أن يسير تلك الليلة ، فقد أنهكه ذلك الجهد الذى بذله طوال يومه وعزم على أن يأوى الى فراشه مبكرا ليستعيد نشاطه .

وقام الى حقيبته ليخرج منها ما يحتاجه الى النوم ، ولكنه لم يكد يفتحها حتى بدرت منه صيحة دهش ، فقد ذهل حين وقع بصره على ثوب حريرى أخضر لا يمكن أن يكون له .. وأدرك للوهلة الأولى أن الحقيبة قد بدلت ، وبالرغم من أن ما فى حقيبته لم يكن يذى قيمة فيشعره فقدها

بخسارة جسيمة - اذ كانت أوراقه الهامة موضوعة فى حقيبة صغيرة حملها فى يده - فقد تملكه الضيق .. اذ لم يكن ليستغنى قط عن البيجاما والشبشب وأدوات الحلاقة وغيرها من التوافه اللازمة لكل رجل .. كذلك لم يكن يسره أن تقع تلك الأشياء الخاصة تحت بصر شخص غريب .. أغلب الظن أنه يحملق فيها الآن كما يحملق هو فى هذه الحقيبة .. وساءه أكثر من هذا وذاك أن يكون ذلك الشخص .. امرأة فقد بدا جليا أن الحقيبة لا يمكن أن تكون الا لامرأة !

ونفذت الى أنفه رائحة عطر يفوح من الثوب الحريرى الأخضر .. فتركته ثملا نشوان .. لقد كان عطرا عجيبا ، ما عرف الفتى مثله من قبل !

وأغلق الحقيبة ليفحصها من الخارج .. فاذا بها تماما كحقيبته .. الحجم نفسه .. واللون نفسه .. لقد كان الحمال معذورا .. فما من أحد يستطيع أن يميز احداهما من الأخرى .. على أية حال لم يكن الخطأ بالشىء الذى يستحيل تداركه ، فما عليه الا أن يرسل الحقيبة الى ناظر المحطة .. ولا شك فى أن السيدة ستعيد حقيبته فيستعيدها من هناك .. ومد يده الى الجرس ليستدعى الخادم ولكنه أعادها الى جانبه مرة واحدة . فقد طاف برأسه خاطر مفاجىء .

ان هناك طريقا آخر لاسترجاع الحقيبة .. طريق يلوح فى نهايته بريق متعة ، طريق يؤدى به الى أحد تلك الأزقة التى يتمناها .. الا يحتمل ان يكون بالحقيبة ما يدله على اسمها وعنوانها .. فيذهب هو اليها لاعادتها بنفسه ؟ .. ومن يدرى .. ؟ !

وشعر بآثار خفيفة من ذلك العطر الذى نفذ الى أنفه منذ لحظات ، فمد يده الى الحقيبة وأعاد فتحها .. فاذا بالعطر يحتويه فى جوه المليء بالسحر والفتنة .. وجذب الثوب الحريرى الأخضر ليكشف عما وراءه .. فاذا بصره يقع على كل ما يوحى بالأناقة والجمال .

حقا لقد صدق من سماهن « الجنس اللطيف » .. فكل ما فيهن .. وما حولهن .. وما يتعلق بهن .. لطيف رقيق .. لقد بدأ الفتى يحس بفرط الخجل من حقيبته ومحتوياتها .. عندما تراءى له أنها قد تكون مشرعة فى اللحظة نفسها لعينى المرأة الساحرة .. وعندما تخيل أن أول ما سيصدم بصرها .. هو ذلك الشبشب البالى العتيق .. وتمنى أنه لو يحضره .. ولو سار عارى القدمين .. ثم بصر بها تقلب بازدراء فرشاة الحلاقة التى لم تبق بها الا بضع شعيرات فكأنها رأس أصلع .. وصابونة الحلاقة التى قد أضحت أثرا بعد عين .

وتذكر الفتى بقية ملابسه .. لقد كانت كلها من نوع عادى ، والبيجامة قد بهت لونها وبدا بها أثر البلى .. والفانلات كذلك لا تخلو أحداهما من نقرة أو نقرتين ، لعنة اللّه عليه ، أنه دائما يؤجل تجديد حاجياته ، فلا يبدل بها الا بعد أن تمسى فى الرمق الأخير .. لا شك فى أن المرأة ستظنه كهلا أخنى عليه الدهر .

وعاد العطر ينفذ الى أنفه .. ويوحى اليه بأن هذا هو شذى أنفاسها وأريج جسدها الناضر البض ، وبدأ يراها بعين الوهم .. أنيقة رشيقة .. ممتلئة فى تناسق واستواء .. وبصر بوجهها من خلال ذلك العطر فاذا به ساحر فاتن .. وبذلك الشعر الذهبى المتهدل .. والأعين الملونة الفاتحة .. والفم الذى يفيض بالعذوبة والاغراء .. لقد أجاد الفتى تصورها فوضع فيها كل ما يتمنى .. ولكن هبه قد وجدها عجوزا عجفاء .. قبيحة شوهاء .. من اولئك العجائز الأجنبيات اللاتى يتعلقن بأهداب الصبا والشباب ! لا .. لا .. هذا شىء مستحيل .. ان قلبه لا يخطىء الحقيقة !

وبدأ الفتى يفتش فى محتويات الحقيبة .. ولكنه أحس ببعض التردد .. لقد شعر بأنه يرتكب أمرا نكرا ، وترك الحقيبة ثم اتجه الى باب الغرفة فأحكم اغلاقه تماما كما يغلقه لو كانت معه المرأة نفسها . لقد عزم

على أن يفحص كل ما فى الحقيبة قطعة قطعة .. ولم يكن يرغب فى أن يزعجه أحد .

وبدا له أن اللون الأخضر هو اللون المحبب الى نفسها .. فكل ما وقع عليه بصره كان أخضر اللون .. المشط .. والمرآة ، وعلبة البودرة .. وأحمر الشفاه والخدود ، وأشياء أخرى لم يستطع أن يعرف فائدتها .. كل هذه كانت خضراء .

ووجد الفتى حرف « ز » على حقيبة صغيرة ، ولم يجد سواه .. فلم يستطع أن يميز اسمها بالضبط .. قد يكون زيزى أوزوز .. أو زينب .. أو زكية .. أو زبيدة .. على أية حال انه يرجح أن تكون « زيزى » فهو اسم حبيب الى نفسه .

ووجد كتابا قلبه بين يديه لعله يجد أثر لاسم أو كتابة تهديه الى صاحبة الحقيبة .. فلم يجد شيئا .

ثم أبصر ثوبا للنوم .. أخضر فستقيا قد طبق بعناية بالغة ، ووضع فى ركن الحقيبة .. وبدت الدنتلا فى صدره دقيقة رقيقة .. وأمسك الفتى بالثوب بين يديه وقد عِلت دقات قلبه .. ومد أصابعه يتخيل طياته ويتحسس صدره .

وذهب الى عمله فى الصباح التالى .. وقضى يومه غائب الذهن .. فقد ترك ذهنه يجول فى الحقيبة ويعبث بمحتوياتها ، ويتخيل لقاء صاحبتها الفاتنة الساحرة .. وقبيل المساء عاد الى الحجرة وهو يحس كما لو كانت هناك امرأة تنتظره .. أمرأة ترتدى ذلك القميص الأخضر ، ويفوح منها عطر ينفذ الى القلب قبل أن ينفذ الى الأنف .

ودخل الفتى الى الحجرة وأضاء النور .. فرأى ما ملأه دهشا ، لقد أعدت صاحبة الفندق الغرفة للنوم .. ليس له فقط .. بل لامرأة أخرى .. لقد وجد الحقيبة فارغة على أحد المقاعد .. وأبصر أدوات الزينة قد صفت

على التسريحة والشبشب الأخضر الأنيق أمام الفراش ، وأبصر القميص الأخضر قد علق على المشجب .. لقد أعد كل شيء حتى بات الفتى يحس بأن المرأة موجودة فى الغرفه فعلا .

وشعر بأنه ارتكب خطأ .. فما كان له أن يبقى الحقيبة فى الحجرة .. ولكنه لم يستطع أن يقاوم ذلك الشيطان الذى يكمن فى نفسه ، والذى يتحرك ليحطم القيد كلما لاح له شبح امرأة فاتنة .. أو نصف فاتنة .. انه رجل متزوج ، يمثل نموذجا لزواج سعيد ، فامرأته لا تقل فى الجمال والفتنة عن أولئك النساء اللاتى يتحرق شوقا اليهن ، بل انه كان فى وقت ما – قبل أن يتزوجا – لا يرى فى الحياة من هو أجمل منها ، وهى لطيفة المعشر ، ذكية عاقلة ، أمينة مخلصة ، تحبه كأشد ما تستطيع امرأة أن تحب ، وهو كذلك يبادلها الحب نفسه والاخلاص ذاته ، ومع ذلك ، ومع كل هذا كان الفتى لا يستطيع ان يقتل فى نفسه ذلك الحنين الى الجمال والميل الى الفتنة .. وما كان فى قدرته أن يسكت ذلك الشيطان الذى يوسوس فى صدره .. كلما بدا له وجه فاتن أو صدر مكتنز أو سوق ملفوفة ممتلئة ، لقد كان يعتبر حبه لزوجه شيئا ، وتلك المغريات شيئا آخر .. لا علاقة لها بالاخلاق أو الخيانة .

وكان يشعر بأن هذه المرأة التى لم ير منها سوى الحقيبة ومحتوياتها .. قد أغرته كما لم تغره امرأة من قبل فقد أحس بأن نفسه لهفة اليها وحنينا الى احتوائها بين ذراعيه .

وخطر له فى تلك الليلة أن يغتسل بقطعة من الصابون المعطر وجدها فى الحقيبة .. وكانت القطعة قد استعملت من قبل ، فأحس وهو يمس بها جسده .. بأن تيارا يسرى فى كيانه .. لقد لمست القطعة من قبل جسدها اللدن الغض .

وتمدد فى فراشه وقد فاح منه ذلك العطر العجيب .. لقد أحس بأن المرأة قد باتت منه على قيد خطوات .. وأنهما قد أصبحا جسدا واحدا .

وتمطى الفتى وتثاءب ، ومد يده ليمسك بالكتاب الذى وجده فى الحقيبة ، ولكنه ما كاد يضع يده على غلافه حتى شعر بالباب يفتح فجأة دون سابق انذار ، واذا بزوجته تقف بهذا الباب وقد علت وجهها ضحكة مشرقة .. كأنما قد سرها أن تفاجىء زوجها .

ولم تطل الضحكة ، فقد حل محلها دهش وذهول وسرعان ما تحول الى غضب شديد .. أن زوجها لم يكن وحده ، لقد كان مع امرأة أخرى ، وتلك آثارها تدل عليها .

وصعق الفتى فقد وجد أن من العسير عليه أن يحاول اقناعها بالحقيقة ، وأن المسألة كلها خطأ فى الحقيبة ، فقد كانت كل المظاهر توحى بأنه ينتظر امرأة ، وأن المرأة ستبيت معه ليلته .

وقبل أن يفتح الفتى فاه ليفسر الأمر ، أبصر الخادم يطل برأسه من الباب ليخبره فى أدب امرأة تريده !

يا للكارثة ! « جاءك الموت يا تارك الصلاة » .

أى امرأة تلك التى تريده فى ذلك الوقت وهو الذى لم تسأل عنه امرأة قط ؟ . أى ظروف خرقاء تلك التى دفعت امرأة - أيا كانت - الى السؤال عنه فى ذلك الوقت الذى لا يتمنى فيه شيئا ، سوى ألا تسأل عنه امرأة .

ولم تطق الزوجة صبرا فانهارت على أحد المقاعد وعصف بها الحزن فاستغرقت فى بكاء عنيف .

ووقف الفتى حائرا هنيهة ، ثم خرج من الحجرة ليرى المرأة التى تريده ، فاذا بها عجوز متصابية قد ارتدت ثوبا أخضر ، واستطاع الفتى أن يلمح على حقيبة يدها حرف « ز » ، ثم أبصر فى ركن الصالة حقيبته المفقودة !

اذا فهذه صاحبة الحقيبة ! .. ولم يحس الفتى بخيبة أمل ، بل على

العكس ، لقد سره الا تكون المرأة خيرا من ذلك ، وأسرع الى حقيبته فحملها فى يده وباليد الأخرى جذب المرأة الى حجرته وصاح بزوجته :

– هذه هى المرأة التى تريدنى .

ثم صاح بالمرأة :

– أخبريها ماذا تريدين ! .

وتعاون الثلاثة على اعادة حاجيات المرأة الى الحقيبة ، وشرد ذهن الفتى فأبصر طريق حياته يبدو مستقيما كما كان ، وحمد الله أن انعطافه كان فى احدى تلك الأزقة القصيرة التى سرعان ما يعود المرء منها الى طريقه السوى مرة أخرى .

★ ★ ★

مجانين البريد

كان الفتى العاشق أكثرهم لهفة الى البريد .. حتى لقد كان عامل البريد يتوجس منه خيفة .. ويسميه فيما بينه وبين نفسه « مجنـــــــــون بوستـــــــــة »

كان الطريق طويلا ، والسفر يملأ النفس وحشة ومللا ، فما تقع العين الا على صفرة الرمال الممتدة المترامية .. حتى ليرتد البصر من فرط الحملقة في لا شيء كليلا متعبا ، ويصيب النفس ضيق وتبرم عندما تمر بها مئات الأميال من الصحراء القفرة الجرداء ، دون تغير ولا تبدل ، فتغرق في لهفة لأن تبصر أثرا من آثار الحياة . ومهما كان تافها فانه يقطع به ذلك الحبل الطويل من الجمود والسآمة .

كانت العربتان تنهبان الأرض نهبا .. وقد جلس فيهما صاحبنا مع بضعة جنود فى طريقهم من الواحات البحرية الى القاهرة وقد خيم على الجميع صمت وسادهم سكون . وجلسوا فى أماكنهم لا تبدر منهم اشارة ولا حركة اللهم الا تلك الهزات والقفزات التى كانت لا تفتأ تراودهم بين آونة وأخرى كلما صادفت العربة تلعة من تلعات الأرض .

وبدأ صاحبنا فى شرود تام عن كل ما حوله . لقد كان جالسا فى العربة « البيك آب » الى جوار السائق بجسده فقط ، أما ذهنه فقد كان فى غيبة بعيدة ، اذ كان يحلق به فى أجواء تختلف كل الاختلاف عن ذلك الجو الذى يشتمله جسده .. أجواء لذيذة ممتعة : لا قفراء ولا جرداء ، لا وهاد ولا نجاد بل خضرة ونضرة ، وسحر ونشوة .

لقد تناهى بذهنه الى القاهرة ، فقطع تلك البيداء الشاسعة فى لمح البصر ، تاركا جسده يعلوه الغبار وتحطمه « المطبات » . وفر بتفكيره حيث المدينة الصاخبة يستعرض تلك الأمنيات التى هى على وشك أن يحققها بعد بضع ساعات .

لقد مضى عليه عام منذ أن غادر القاهرة آخر مرة . واستقر مع وحدته فى الصحراء التى تشرف على الواحات البحرية ، وها هو ذا يعود اليها اليوم بعد فرط حنين ، وطول لهفة وشوق ما أعجب أمره ! كيف استطاع أن ينتظر تلك الشهور الطويلة دون أن ينفد صبره وهو اليوم يتعجل الدقائق والثوانى !

هذه الشهور التى مرت عليه دون أن يبصر فيها وجها جميلا ، أو يسمع صوتا عذبا ؛ أو يمتع بلقاء هنىء .. كيف استطاع احتمالها ؟ لا شك فى أن الفضل بذلك يرجع الى تلك الكوكبة من الرفاق الذين تفيض نفوسهم مرحا وتشع قلوبهم بشراً ، والذين جعلوا من تلك البقعه الموحشة موطنا للضحك والسرور ، وخلقوا من الملل والكابة أنسا وحبورا .

كانت حياتهم سلسلة فكاهات وأضاحيك ، حتى انه ليكاد يجزم بأنه ما ضحك فى حياته قط قدر ما ضحك وقتئذ .. كان مرح الشباب يهيىء لهم مادة من الضحك لا تفنى فكانوا يضحكون من كل شىء بل من لا شىء .

وكان أكثر ما يضحكهم ، هو صاحبهم العاشق ، ولم يكن تميزه بتلك

الصفة ليعنى أنه لم يكن بينهم عاشق سواه . بل على العكس .. لقد كانوا كلهم عشاق ، فالعشاق والصبا توأمان وهما صنعوا الشباب ، ولكنهم اختصوه بتلك الصفة لفرط ما به من وله وصبابة ولأنه كان عاشقا ، مستجدا ، اذ كان حديث عهد بالخطبة . وكان رحيله الى ذلك المكان النائى قد حرمه من أمتع أيامه وأهنأ لياليه وزاده صبابة على صبابته وأضرم فى نفسه نار الشوق ولهيب الوله .. ولم يكن الفتى العاشق ليقل عن صحابه ميلا الى المرح واللهو ، بل ربما كان أكثرهم دعابة وألطفهم فكاهة .. فلم يكن فى هواه بالباكى الملتاع الذى تركت الفرقة عنده أشجانا وأحزانا ، بل جعلت منه منبعا للتسلية ومصدرا للطرب والمرح .

كان الفتى لا يأتى شيئا سوى الغناء ، وسرد الشعر ، والجلوس على حجر أمام مكتب البريد ! . أما الغناء فقد كان ولوعا بالمواويل يحفظ منها كمية هائلة .. وكانت له قدرة عجيبة على القائها .. وكان أحبها الى قلبه موال ما فتىء يردده فى كل آونة ، وهو « يابو الطقية الشبيكة مين شاغل بالك ؟ » . أما الشعر ، فقد وعت منه ذاكرته كل ماقيل فى الهوى والعشق ، والغزل والتشبيب مما للمجانين والعقلاء وللأحياء والأموات ، أما جلوسه أمام مكتب البريد فمسألة فيها كثير من الطرافة .

كان مكتب البريد فى البحرية – وأغلب الظن أنه ما زال – عبارة عن حجرة بجوار دار المأمور ، ولم يكن هناك شىء يثير الحنق فى نفوس الصحاب المرحين ، ويملؤهم ضيقا وغضبا قدر تأخر البريد الذى لم يحدث مرة واحدة أن وصل فى موعده فقد كانت وسيلة نقل البريد بين القاهرة والبحرية – وهى مسافة تقرب من الأربعمائة كيلو متر ليس بينها متر واحد ممهد بالأسفلت – هى عربة « فورد » بلغت من الكبر عتيا ، شعارها فى التأنى السئمة ، فهى تكره العدو ، حتى لتخالها فى بعض الأحيان تمشى القهقرى ، وكثيرا ما ينهكها السير ، فتقف فى الطريق لتستريح ، وقد تطول بها الراحة الى حد أن ينسى سائقها أهو ذاهب الى القاهرة أم عائد

الى البحرية . وكثيرا ما كان أصحابنا يهجمون على عربة البريد وبنفوسهم لهفة الى ما حملته اليهم فاذا بها بعد طول غيبة ، قد أعادت اليهم بريدهم الذى رحلت به .

وكان الفتى العاشق أكثرهم لهفة الى البريد ، حتى لقد كان عامل البريد يتوجس منه خيفة ، ويسميه فيما بينه وبين نفسه . « مجنون بوستة » . فقد انتهى الأمر بالفتى من فرط ما أصابه من تأخير البريد ، أن انتقى حجرا ووضعه أمام حجرة البريد . فلا تكاد الشمس تشرق حتى يتخذ محله عليه مضربا عن كل أعماله ، ولا يفارقه حتى تلفه ظلمة الليل .

ومرت الأيام والرفاق فى مجونهم ومرحهم ، حتى خولت لهم العودة الى القاهرة فى اجازات قصيرة ، الواحد تلو الآخر . ولم يكن هناك شك فى أنهم يرون أن حقهم فى أن يكون البادىء بالاجازة هو صاحبهم العاشق ، ولكن الفتى أصيب فجأة بالملاريا . فاذا هو لسوء الحظ طريح الفراش قد حطمته الحمى ونهكت قواه ، فوقع الاختيار على صاحبنا ذاك الذى قد جلس فى العربة وقد سبق ذهنه جسده الى القاهرة الصاخبة .

جلس الفتى يرقب فى رأسه .. كيف هو سيقضى الأيام الخمسة التى صرحوا له بها .. خمسة أيام فقط ؟ . لقد كان عليه ان يفكر جيدا فى كيفية الانتفاع بها والا سرقه الوقت وأفلتت منه تلك المتع التى كان يحلم بها .

لقد كان أول ما يجب عليه عمله ، هو أن يخفف من تلك المهام الثقيلة التى كان يجب عليه أن يؤديها وأولها هو زيارته لبيوت رفاقه وايصال رسائلهم اليها ، وكان عليه أن يبدأ ببيت صاحبه العاشق ، وتلك هى أثقل المهام .. فقد كان يكره أن يكون رسول شر ، وأن يحمل الى الناس من الأنباء ما لا يسر ، ولكنه كان مضطرا لأن يقابل خطيبة صاحبه ويحمل اليها نبأ مرضه بالملاريا مخففا قدر الامكان ويطمئنها عليه ويبلغها أشواقه ، وعليه بعد ذلك أن يقوم بتلك الزيارات الرسمية التى لابد منها .

على أية حال يجب الا يعطى لكل هذه الأمور السخيفة أكثر من يوم واحد ثم يتفرغ بعد ذلك الى ما هو أهم وأمتع . أجل . عليه أن ينظم وقته بحيث يتسنى له أن يقابلهن جميعا ، وأن يعوض نفسه ما فاته فى خلال تلك الغيبة الطويلة .

★ ★ ★

الفتى الآن قد وصل الى داره فعلا بذهنه وجسده معا .. وقد انتهى من احتضان وتقبيل كل من فى الدار ، وخلع حلته العسكرية وأزال عناء السفر .. ثم ارتدى البدلة ، الكحلى ، و ، الياقة المنشية ، وهى أرصن ما يمتلك ، ووقف أمام المرآة لحظة .. ثم أنطلق من الدار وسط عاصفة من احتجاجات دون أن يأبه لرجائهم بأن يمكث بينهم قليلا فيطفىء شوقهم اليه .

لا . لا . أن المدة خمسة أيام فقط . انه فى عجلة من أمره ! وبعد فترة قصيرة كان الفتى يسير فى شارع الملك يحملق فى ارقام الدور حتى وقف أخيرا أمام الرقم المطلوب .

يا للعجب ! . أهذا هو حقا بيت الخطيبة المطلوبة ! . انه لم يتخيل قط أنه بمثل هذه الفخامة .. لا شك فى أنها (لقطة) . ترى كيف استطاع صاحبه العثور عليها ؟

ودفع الفتى الباب الحديدى وعبر الحديقة الواسعة الغناء ثم صعد بضع درجات وضغط الجرس ، ولم يطل انتظاره فقد فتح الباب وأطل منه وجه لم يشك فى أنه وجه خطيبة صاحبه .

أجل أنها هى بعينها ، كما أبصرها فى الصورة التى أراه اياها ! بل لقد كانت فى الحقيقة تبدو أصغر منها فى الصورة ، وتأملته الفتاة هنيهة متسائلة بعينيها عما يطلب ، ولكنه لم يكد يفتح فاه بالحديث حتى صاحت

باسمه فى دهش كأنما قد استطاعت تمييزه فجأة وطلبت منه الدخول مرحبة دون كلفة .

ودهش الفتى عندما علم أنها عرفته من بعض الصور التى أخذت لهم مع صاحبه فى الصحراء ، وأدهشه أكثر من ذلك أنها تعرف عنه وعن رفاقه الشىء الكثير .

وجلس الاثنان فى حجرة تطل على الحديقة وكانت الشمس قد توارت فى الحجاب ولم يبق من ذكراها الا فلول من الشفق الأحمر قد أخذت تنحدر أمام جيوش الظلمة .

وبدأ الفتى يفكر كيف يسوق اليها نبأ مرض صاحبه دون أن يزعجها ، وأخذ ينتقى فى ذهنه وسائل اللف والدوران التى يمكن أن يسلكها الى غرضه دون أن تصدم الفتاة .

وتعجب فى نفسه من تلك اللهجة التى كانت تخاطبه بها الفتاة .. حقيقة أنه ضيف ، وأن الأدب والرقة وأجبان فى مثل هذه الحالات ، ولكن رقتها نحوه كانت – الى حد ما – أكثر مما يستحق أو يتوقع .

ووجد الفتى نفسه – دون أن يدرى – يسترق النظر الى ساقيها ، فاذا هما آية فى التناسق والجمال ، ثم ارتفع ببصره شيئا فشيئا وأخذ يفحص بقية الجسد . فراعه ذلك الانسجام والاستواء ، وانتقل الى الوجه فأحس بسحر يشعر من عينيها وفتنة تفيض من شفتيها !! لقد كان صاحبه معذورا فى جلوسه على الحجر أمام مكتب البريد ، ولو كان هو مكانه ، لما استطاع أن يحتفظ حتى الآن بقواه العقلية !

وبدأ الفتى يقص ما جاء من أجله ، ولم يأخذ ذلك منه سوى لحظات قصيرة .. وادهشه أنه لم يبد على الفتاة ما كان يتوقعه من انزعاج وحزن ، ولم يزد ما قالته تعليقا على قوله عن بضع كلمات تمنت لصاحبه فيها الشفاء .

ولم يجد بعد ذلك ما يقوله .. فقام من مكانه مستأذنا فى الانصراف ، ولكن الفتاة نظرت اليه فى دهش ، وقالت :

- أبمثل هذه السرعة ؟

ثم أطرقت وأردفت بصوت خافت :

- أنا أعلم أن اجازتك لابد وأن تكون قصيرة ، وأن الساعات عندك ثمينة ، أثمن من أن تقضيها فى زيارة بيوت الأصدقاء ولكن كان يسعدنى أن تمكث عندنا بعض الوقت ، حتى نتناول الشاى على الأقل .

ولم يسع الفتى الا أن يجلس ، ولم يسعه أيضا - بالرغم منه - أن ينكر أن استبقاء الفتاة له قد أسعده ، وأنه قد بات يسره أن يقضى معها مدة أطول ، وأخذ يرقبها مليا ، وهى تتحدث عن الجو وعن الحديقة والزهور ، وعن كل شىء الا صاحبة .. ووجد نفسه يجاذبها الحديث ، وكأن بينهما صحبة قديمة . فقد كان يحس فى نفسه بأنهما قد التقيا قبل ذلك مئات المرات وكان يشعر أن الجو الذى شملهما مليء بنشوة ممتعة شبيهة بتلك النشوة التى تسود جو العشاق .

وصمتت الفتاة فجأة ، وحدقت فيه حينا ، ثم هزت رأسها متسائلة :

- يخيل الى أننى قد التقيت بك قبل الآن . لست أنكر متى ؟ وأين ؟ ولكنى أكاد أجزم فى نفسى أنك لست غريبا عنى .

وضحك الفتى وتأملها هنيهة ثم أجاب :

- هذا ما أحس به نفسه وقد يكون اللقاء قد حدث فعلا ، ولكننا لم نلتق بأجسادنا ، بل التقينا بأرواحنا .

ورفعت اليه عينيها فالتقت بعينيه ، ومرت بينهما نظرة تحمل فى جوفها أشياء كثيرة ، نظرة من تلك النظرات التى تمر بين الرجل والمرأة

فتحمل الى كل منهما ذلك الشيء الذى لا يستطيعان الا فصاح عنه ، ذلك الشيء الذى يكمن فى القلوب ولا يمكن تبادله الا عن طريق العيون .

وفجأة أحس الفتى بوخز فى جانبه ، لقد خيل اليه أن صاحبه يرقبه ، صاحبه الذى يرقد فى جوف الصحراء على بعد مئات الأميال ، والذى كلفه أن يحمل رسالته الى خطيبته .

لقد أحس الفتى بأنه قد ارتكب فعلا نكرا وأمرا ادا ، فقد كان عليه أن يبلغ الرسالة ثم ينصرف الى سبيله ، ومع ذلك فقد ارتضى لنفسه أن يجلس قبالة الفتاة فيجاذبها الحديث ، ويبادلها نظرات الحب المختلسة ، ويخبرها أنهما قد التقيا بروحيهما – أزهق الله روحه وفرق جسده – حتى يكف عن خيانة الأصدقاء !

ترى ماذا يقول عنه صاحبه ، وسائر رفاقه ، لو أبصروه على هذه الحال ؟ هب أن الفتاة قد راعت معه أصول الضيافة ، وأفرطت بعض الشيء فى مجاملته لأنه صديق خطيبها أفكان يحق له أن يستغل رقتها ، فيتمادى فى الجلوس معها ليمتع بصره بوجهها الجميل وجسدها الناضج ؟ أفكان يحق له أن يجلس ليسوق اليها ألفاظ الحب ونظرات الغرام ؟

لا . لا . ليس هذا من شيم الرجال ، يجب عليه أن يتمالك نفسه ويؤوب الى رشده .

وفجأة نفض رأسه كما ينفض المرء رأسه عندما يصعد من جوف الماء ، ثم نهض واقفا وقال فى حزم واصرار :

– لابد أن أنصرف الآن ، لقد تذكرت أن لدى أعمالا هامة . وبدرت من الفتاة صيحة دهش وقالت فى أسف :

– أترانى قد أزعجتك باصرارى على ابقائك ؟ انى جد آسفة !

وساء الفتى نظرة الحزن التى بدت فى عينيها ولكنه صمم على أن

يكون حازما .. وكسا وجهه قناعا من الجلد والصرامة ، ومد يده اليها مودعا دون أن يحاول النظر الى عينيها ، ولكنها أصرت على أن تودعه حتى الباب الخارجى .

وسار بجوارها ، ورأى نفسه يتخلف قليلا فيتمنى له أن يرقب جسدها البديع وشعرها المسترسل على كتفيها . انه لم يجد فى ذلك أى حرج . فما دام قد صد نفسه وكبح جماحها ، اليس له الحق فى أن يتزود منها بنظرة أخيرة ، ولو للذكرى ؟

ووقفت الفتاة تودعه عند الباب الخارجى وما زالت تبدو فى وجهها علامات الأسف لرحيله السريع ، ولكنه شد على يدها وغادرها كأنه هارب من خطر داهم .

ولم يطق الفتى أن يمنع نفسه عن التفكير فى الفتاة . وأحس بها قد ملكت لبه وشغلت ذهنه ، وتعذر عليه أن يطرد صورتها التى استبدت برأسه ، ولم يسعه أن يتهم نفسه بالسخف والجنون .. وأى جنون هنالك أكثر من أن يترك نفسه تنغمس فى التفكير فى فتاة ليست له ولا يمكن ان تكون له ؟ ان هذا التفكير فى خطيبة صاحبه يعتبر ضربا من ضروب الخيانة ، ولكن ما حيلته والأمر ليس بيده ! لقد ابتعد بنفسه عن الفتاة ، وقد كان فى استطاعته أن يمتع بلقاء أطول .. ولكنه كان أمينا على عهد صاحبه ، فولى الأدبار . أجل لقد نجح فى الفرار منها ، ولكنه الآن لا يستطيع الفرار من طيفها الذى ملك عليه نفسه .

ما أحمقه ! فيم هذا التعلق منه بالفتاة التى لم يرها الا مرة واحدة والتى كان يعلم سلفا أنها محرمة عليه وأن مجرد التطلع اليها ليس فيه شىء من الوفاء ؟ ولكنه مع كل ذلك استمر يفكر فيها .. حتى لقد بات من كثرة تفكيره فيها زاهدا فى هاته الفتيات اللاتى كان يتحرق شوقا اليهن واللاتى كان يستحث الوقت وهو فى طريقه الى القاهرة لكى يتمتع بلقائهن .

وفى اليوم التالى وجد الفتى نفسه وقد أخذ يتلمس الأسباب والأعذار

لكى يزور الفتاة مرة أخرى .. وبدأ النضال بينه وبين نفسه .. يذهب أم لا يذهب ! لقد كان عقله يمنعه من الذهاب وضميره يحذره من أن يحيد عن جادة الصواب .. وكان قلبه يتحرق شوقا ، ويدفع به الى بيت الفتاة دفعا ، ولكن وجد نفسه أخيرا وقد وقف أمام باب الدار يضغط على الجرس !

وكان يحس باضطراب شديد .. حتى لقد حمد الله حينما خرج اليه الخادم فأنبأه أن أهل الدار قد خرجوا .. وعاد أدراجه وهو لا يكاد يصدق .. كيف ساقه جنونه الى أن يحاول العودة الى الفتاة .. وماذا تراه كان قائلا لها لو وجدها ؟

وأخيرا انتهت الأيام الخمسة ، دون أن يحس الفتى بتلك المتع التى كان يتوقعها .

فقد أقض مضجعه طيف الفتاة .. وسلبه تفكيره اليائس فيها كل راحة ومتعة .

وفى اليوم السادس عاد الى الواحات البحرية ، وفى ذهنه شرود وغروب بال ، وتلقاه رفاقه مهللين ، وسألوه فى لهفة أن يقص عليهم ما حمل من أنباء وأقاصيص ، ولكنه لم يقص عليهم شيئا ، فقد كان به ميل الى الصمت وزهد فى الكلام .

كان صاحبه قد أبل من مرضه .. وأقبل عليه يسأله عن خطيبته وكيف وجدها ، وماذا قالت له ، وكيف استقبلته .. فأجابه فى اقتضاب أنها بخير وأن مرضه قد أحزنها ولكنه طمأنها قدر المستطاع .

ومرت الأيام فاذا بالفتى لا يسعده شىء كالجلوس الى صاحبه ليسمع حديثه عن خطيبته ، فقد كان يحس بمتعته فى سماع تلك الأحاديث .. حتى انتهى الأمر به الى أن يعرف عنها كل شىء .. وحتى بات يشعر بأنه

يعرفها معرفة وثيقة ، بل أنه ليعرفها كما يعرف أقرب الناس اليه ، أو كما يعرف نفسه .

وفى ذات أصيل جلس الفتى يرقب قرص الشمس الأحمر يختفى ببطء خلف كثبان الرمال .. ولم يكن هناك أحب اليه من ذلك المنظر ، ولكنه فى تلك الساعة لم يحس بذلك الوقع الجميل الذى تعود أن يحس به ، فقد حجبه عنه ستار كثيف من الحزن الذى شمل قلبه وغمر فؤاده .. ولم يشعر الا وهو يسأل نفسه : ترى أية روية سيؤدى اليها ذلك الطريق العجيب الذى يسير فيه ؟ وماذا يمكن أن تكون نهاية ذلك الحب اليائس الشبيه بحب الخيالات وعشق الأشباح . لقد بات أشد من صاحبه لهفة الى رسائل البريد .. لا لأنه ينتظر خطابا لنفسه بل لأنه ينتظر خطابا من خطيبة صاحبه لصاحبه .

لقد كانت فى نفسه لهفة الى ذلك الخطاب ، فقد توقع أن الفتاة ستذكره فيه على الأقل لتخبر صاحبها أنها قابلته . ولم يكن بالطبع قد بلغ به الجنون حدا يتوقع أن تسوق الفتاة الى صاحبها كلمات الاعجاب به هو .. ولكنه توقع أنها ربما عرضت له فيه بكلمة مدح أو بكلمتين .. على أية حال ، وحتى لو لم تذكره البته ، لقد كانت به لهفة الى أن يقرأ منها ويستمع اليها حتى ولو كان كتابها وحديثها موجها الى غيره .

وتلفت الفتى حوله فاذا بصاحبه يقبل عليه فجأة وقد تهلل وجهه بشرا ، وكادت مشيته من فرط فرحته تكون رقصا . وقد أمسك فى يده رسالة كأنها تصريح بالدخول الى الجنة .

لقد كانت رسالة من خطيبته ، ما فى ذلك ريب ولا شك وقفز الفتى من مكانه وعدا الى صاحبه .

ونظر اليه صاحبه وقد تجسم الهناء فى قسماته ، وبدرت منه ضحكة .. ثم مد يده بالرسالة الى الفتى .

وأقبل الفتى على الرسالة يقرءها بشغف وشوق ، ونمادت أساريره في الانبساط ، وبدا عليه من دلائل السعادة أكثر كثيرا مما كان يبدو على صاحبه . ولم يكد ينتهى من قراءتها حتى اندفع الى صاحبه يحتضنه ويقبله كأن به مسا من جنون . وكان الفتى معذورا . فقد وجد فى الرسالة أكثر مما كان يتوقع !

لم توجه اليه الفتاة طبعا كلمات حب ، حتى ولا اعجاب ، بل لم تذكر عنه شيئا ألبتة . ومع ذلك فقد وجد الفتى فى الرسالة أكثر مما كان يحلم به ! أجل لقد كان فيه شىء عجيب !

ان الفتاة لم تذكر عنه شيئا ، لا لشىء الا لأنها لم تره .. أجل .. لقد قالت الفتاة أنها كانت خارج الدار ، وأن التى قابلته هى أختها الصغرى ! .

وكان هذا أكثر مما ينتظره الفتى .. فقد أحس بأن سحب اليأس قد تبددت من حوله .. وأنه كان على شفا حفرة من الموت فأنقذ منها .

وبات الفتى ليله ساهرا .. فقد كانت سعادته أكثر مما يحتمل . وفى الصباح هدد الفتى من حوله ، أنه ان لم يسمحوا له بالذهاب الى القاهرة فورا لكى يخطب الفتاة .. فانه سيذهب سيرا على الأقدام .

وعلم من حوله أن جنون الحب قد أصابه ، وأنه قد يفعلها . فسمحوا له بالذهاب .

وعاد الفتى بعد أن خطب الفتاة ، وفى ذات صباح ، بعد أسبوع من عودته .. كان موظف البريد يفتح مكتبه فاذا به يبصر الفتى وقد حمل حجرا آخر وضعه أمام المكتب بجوار حجر صاحبه . فعلم أن « مجانين البوستة » أو مجانين الهوى قد زادوا واحدا .

★ ★ ★

أمل

آه من هذه الظلمة التى شملتنى ! .. وآه من هذه الوحدة المضنية .. لم لا تترفق بنا الحياة فتكرر حوادثها مرتين ؟ .. فقد تعلمت الآن كيف أقول « نعم » دون أن أعطـــى دروسا فـــى الحيـــاة .

الى قارئى فى كركوك .. القارىء الذى طلب الى أن أكتب اليه قصة بعنوان « أمل .. » اهدى هذه القصة ، لاننى لا أستطيع أن أرد لواحد من أهل العراق طلبا ، فانهم جميعا أعزاء على نفسى ، أحباء الى قلبى .

كان أول ما فضضته من الرسائل التى حملها الى البريد فى الصباح رسالة مليئة مكتظة وجدت بها خطابا طويلا قد شغل ما يقرب من خمس صفحات « فولسكاب » ، وأسرعت بقراءة التوقيع ، فوجدت المرسل صديقة لى لم تتعود قط أن تراسلنى ، اذ ليس بيننا سوى صداقة عابرة لا تستدعى أن يكتب أحدنا الى الآخر .

ونظرت الى صاحبى الذى جلس على مقعد أمام مكتبى وقذفت اليه

بمجلة ليتسلى بقراءتها حتى انتهى من قراءة الرسالة ، أو « العرضحالة» .

ثم بدأت القراءة ..

عزيزى :

لا أدرى ما الذى دفعنى الى الكتابة اليك .. أنت بالذات دون سواك ! بل لا أدرى ما الذى دفعنى الى الكتابة أصلا .. ؟ وأنا التى لا أكره شيئا مثل كتابة الرسائل ، ولا أستطيع أن أخط سطرين متتاليين الا بعد مشقة وعناء .

ولكنى أحس الآن كأن نفسى قد شملتها ظلمة حالكة ، فأحاول – بالكتابة اليك – أن أتلمس فى تلك الظلمة من يؤنس وحدتى ، ويخفف عنى وطأة هذه الوحشة المضنية ، أجل .. أنى أحس فى الفؤاد جمرة متأججة .. لو طويت صدرى عليها وحسبتها فى أضلعى ، لتركتنى رمادا أو هشيما .

هذا ما جعلنى أمسك بالقلم وأحاول الكتابة .. أما لماذا اخترتك أنت ، فلأننى فى حاجة الى من يستطيع فهمى ، والى من يستطيع فهم تلك العوامل النفسية التى تصطخب فى نفسى والى من يكون لديه الصبر الذى يمكنه من قراءة رسالتى حتى النهاية فلا يصيبه الملل بعد قراءة أسطر منها فيلقى بها فى ضيق وتبرم ، ولا يكون نصيبى منه الا بضع كلمات ساخرة فاترة .

أنا أعلم أنك لم تملك شيئا لى ، فلا عزاء لى عندك سوى الكلمات ، ومتى كانت الكلمات تجدينا ؟ اننى كنت حمقاء ، فتركت الفرصة تفلت من يدى أو على الأصح ركلتها بقدمى ولا أظنها ستعود بعد ، فأسوأ ما فى الحياة أن الحوادث فيها لا تتكرر مرتين دائما ، فيتعظ الانسان فى المرة الثانية بما ارتكب فى المرة الأولى ، فان الفرصة لا تكاد تمر بنا وتفلت من أيدينا حتى يصيبنا الفزع ونصيح بها أن تعود ، لأنها تعلمنا كيف

نفتنصها ، وكيف لا نجعلها تفلت مرة أخرى .. ولكن هيهات .. انها لا تعود .

أنت لا شك تعرف الدكتور (...) بل انى لأذكر انك كنت أول من عرفنى به ، عندما التقينا فى الصيف الماضى فى سيدى بشر ، وأنبأتنى ضاحكا بأنه طبيب أسنان و « نصاب » ! وطلبت الى الا أفكر أبدا فى الالتجاء اليه اذا ما أصبت « بوجع الضرس » ، لأنه سيشفينى من « وجع الضرس » ويضنينى « بوجع القلب » !

ولست أدرى ما الذى يجعلنى أتذكر قولك الآن .. وتحذيرك اياى على ما كان به من هزل ومجون ، وبالرغم من أنه لم يعلق بذهنى وقتذاك الا كما تعلق نكتة عابرة تافهة . أجل . أنه - على الرغم من هذا كله - يخيل الى أن الأيام قد حققت نبوءاتك ، فأصبت منها بلوعة فى الفؤاد وحسرة فى القلب .

لقد بدأ الأمر بيننا بأن أصبت أنا فعلا « بوجع الضرس » ، ولم أكن أفكر قط فى الذهاب اليه ، لا لشىء الا لأننى قد نسيته ، ولكن المصادفة وحدها هى التى ساقتنى اليه ، فقد قرأت اسمه ذات مرة على لافتة فى احدى الدور ، ولم أر ما يمنع من الدخول . فقد كان هو وغيره لدى سواء .

وعندما رآنى عرفنى للوهلة الأولى وأقبل على باسما مرحبا ، كأن بيننا قديم ود وسابق تعارف ، وتكررت بعد ذلك زيارتى له ، وبدأت أحس نحوه بالثقة والاطمئنان ، فقد اعجبتنى فيه براءة مظهره ولطف معشره .

وذات يوم أنبأنى أن معه تذكرتين للأوبرا وأنه تسعده مرافقتى اياه ، وصمت هنيهة قبل أن أجيبه ، لقد كان الذهاب يسرنى ، ولكنى لم أتعود قط أنى أخرج فى صحبة رجل غريب منذ وفاة زوجى ، أى مايقرب من ثلاث أعوام ، ووجدت هاتفا فى نفسى يكاد يقول نعم ، ولكنى وجدت فى القبول نوعا من الخيانة ، خيانة عهد قديم ، وحب ما زالت جذوره مغروسة

فى قلبى بالرغم من أن أوراقه قد جفت وتساقطت .

وأجبته بهدوء أنه لا يمكننى مرافقته الى أى مكان ، هو أو سواه من الرجال ، وبدا فى وجهه شىء من الخذلان وخيبة الامل ، ولكنه سرعان ما عاد الى سابق فكاهته والى أحاديثه المرحة الضاحكة .

وفى تلك الليلة اصابتى أرق شديد ، فقد تيقظت فى نفسى ذكريات هاجعة راقدة ، وعصف بى الحنين والشوق الى حبيب راحل نأى به الموت وأبعدته الأيام ، ووجدت القلب يناديه ويستعيد لياليه .

لقد تذكرت زوجى العزيز الذى كان يفيض بالأمل والحياة ، وذكرت أمانيه الحلوة التى نرتهاريح الزمن وتركها الموت هباء فى هباء .

تذكرت كيف احتوانى بين ذراعيه القويتين ليلة الزواج ، وكيف سمعت همساته كأنها تغريد وترنيم ، « أنت زوجتى .. وسأحبك حتى آخر العمر » . آخر العمر ؟ . لقد كان يبدو حينذاك بعيدا نائيا ، لا تكاد تبصره العين أو تحس به النفس ، ولكنه مع ذلك كان قريبا منا ، أقرب مما نتصور ، فما مرت ثلاث سنين ، حتى أبصرناه على قيد خطوات ، أو قيد لحظات ، وأخيرا انتهى الأمر ، وأحسست بأن موته – وأنا فى السادسة والعشرين – كان بمثابة موت لى ، وكان لنا معا « آخر العمر ! .. »

ومرت الأيام وأنا لا أجد فى الحياة ما يستحق البقاء .. اللهم الا تلك الذكريات الحلوة الهاجعة فى النفس ، والتى لولاها لكنت والموتى سواء ، واستطاعت الأيام بعد ذلك أن تبرىء جراح القلب وتخفف من لوعته وأساه ، ولكنها لم تستطع أن تقلع جذور الحب المتفرعة فيه ، ولم تستطع أن تمحو الحنين الهادىء الصامت الذى كان يجيش به .

ووجدتنى أستمرىء الوحدة ، وأستطيب العزلة ، وحدة القلب وعزلته ، وان كان من التجنى أن أصف ما كنت فيه بالوحدة والعزلة ، اذ ما غادرنى طيفه لحظة واحدة ، وما كنت وحيدة بعد موته أبدا .

ولكن ما الذى أثار كوامن شجنى فى تلك الليلة ؟ وما الذى جعلنى آرق لا يغمض لى جفن ؟ أفعل بى ذلك مجرد دعوة وجهت الى فأشعرتنى أننى وحيدة ؟ أم بدأت نفسى الساكنة تتمرد وتثور ؟ .

ومرت بضعة أيام بعد ذلك ، ثم ذهبت لزيارة الطبيب فأقبل على فى لهفة وشوق ، وألح فى هذه المرة أن أقبل دعوته الى السينما ، وأنبأنى أنه لا يستطيع أن يفهم سببا لرفضى ، الا أذا كنت أرفض صداقته ، وأرفض الثقة به .

ولست أدرى حينذاك هل أصابنى ضعف أمامه فقبلت دعوته ، أم اننى قبلت دعوته لانى اقنعت نفسى بأن المسألة أتفه من أن أتهم نفسى بالضعف لقبولها ؟ وأن اخلاصى لزوجى الراحل لا يمكن أن يتأثر بأمثال تلك العلاقات البسيطة التافهة .. على أية حال ، وسواء أكان هذا السبب أو ذاك فقد قبلت الدعوة .

وصحبته الى الدار بعد انتهاء السينما ، وجلست بجواره فى العربة جنبا إلى جنب ، وخيل الى أنى أحس بالكثير من السعادة ، وبالكثير من الرضا .. السعادة والرضا المشوبين بشىء من الخجل ، وبشىء من الندم ، وتأنيب الضمير .

وفى هذه الليلة لم أذق النوم الا لماما ، ولم يضايقنى ذلك فقد كنت أحس بيقظة ممتعة ، وعندما كانت عيناى تغفلان كنت أرى أحلاما لذيذة ألتقى فيها بزوجى ، كما كنا نلتقى فى سابق عهدنا ، ولكنى كنت أرى فى بعض الأحيان أن وجه زوجى قد أخذ يتبدل شيئا فشيئا حتى يصير شديد الشبه بوجه صاحبى الجديد .

واستيقظت فى الصباح وقد عقدت النية على ألا أذهب لزيارته مرة أخرى .

لقد كان من الحمق أن أترك نفسى تندفع فى طريق مغلق . اننى

أصررت على ألا أتزوج مرة أخرى ، فمن العبث أن أحاول انشاء علاقة معه لا معنى لها ، ولا يعلم الا الله مداها ، ومن العبث أيضا أن أحاول خداع نفسى لأتركها عن بعد تتلمس المعازير التى أعلم الناس ببطلانها .

وخيل الى أننى استطعت أن أضع حدا للمسألة ، ولكن لم تكد تمضى بضعة أيام حتى التقينا مرة أخرى ، ولكنه فى هذه المرة كان هو الذى أقبل على فى البيت ، وقد كست وجهه سيماء الخطورة ، وحمل حقيبته فى يده ، مدعيا أنه خشى أن يكون قد ألم بى ما منعنى من الحضور ، وهو يعلم أن أى تهاون فى مسألة الضرس قد يؤدى بى الى التهلكة ، وكنت أعلم جيدا أن كلامه لا يعدو أن يكون كذبا فى كذب لأن ضرسى لم يعد به أى شىء .

وقبل أن ينصرف أنبأنى بأن هناك رواية « هايلة » فى الأوبرا ، وأن مشاهدتها مفيدة جدا « لوجع الضرس » .

وذهبت معه الى الأوبرا فى ذلك المساء ، وبعد انتهاء الرواية جلست الى جواره فى عربته ليوصلنى الى البيت .

وفى الطريق توقف على شاطىء النيل هنيهة وأخذنا نتحدث ، وليس هناك شك فى أنه محدث بارع ، فقد استطاع أن ينسينى بسرعة رغبتى فى العودة ، وشيئا فشيئا زاد اقترابه منى ، ثم أمسك بيدى ، وبدأ حديثه يتحول الى همسات .

وهنا خيل لى أنى لن أستطيع أن أصف بالضبط تلك المرحلة الدقيقة التى مررت بها وقتذاك ، مرحلة الصراع النفسانى العنيف ، والتأرجح بين الماضى والحاضر ، وبين الذكريات والحقائق .. أجل .. يخيل الى أنى لن أستطيع أن أجعلك تفهمنى لأنى أنا نفسى لم أكن أفهم نفسى .

أترانى حقا أحب ذلك الذى أجلس الى جواره وأدع يدى فى يده ؟ ترى أن الشجاعة فقط التى تنقصنى لتكون متعتى بحبه كاملة غير

منقوصة ؟ أترى لو استطعت أن أسدل الستار بينى وبين الماضى ، هل يذهب من نفسى ذلك الشعور بالقلق ؟

أم .. أم ترى العكس هو الصحيح ؟ وأنى لو أسدلت على الماضى ستارا لما أحسست قط بمتعة أو غبطة ، لأن ذلك الشخص الذى أسمع همساته الآن ليس الا مرآه تنعكس فيها صورة زوجى العزيز الذى أحببته بكل ما تملك المرأة أن تحب ، وأن تلك النشوة التى أحس بها الآن هى ملكى أنا .. هى كائنة فى نفسى ، وكامنة فى قلبى ، وأن كل ما فعله ذلك الشخص الجديد هو أنه حركها ، فجاش بها القلب ، واصطخب الفؤاد .

وأحسست به يرفع يدى فيضعها على فمه ، ثم يسألنى أن اكون زوجته .

وأحسست برجفة تسرى فى بدنى .. أنا ! . أنا أتزوج مرة أخرى ؟ ! أهذا هو الوفاء لزوجى الحبيب الراحل ؟ أيمكن أن استبدل بحبه حبا آخر ؟

ونظرت اليه ونزعت يدى من يده ، كأننى أتراجع من على حافة هاوية ، ثم هززت رأسى ببطء ، وأجبته هامسة :

« اننى قد أحببت مرة واحدة ، ووهبت قلبى ، فلا أستطيع أن أهبه مرة أخرى . أجل . لن أتزوج حتى آخر العمر . انى أحس بعزاء فى وحدتى » .

وأجابنى فى رقة وعطف : « ان من الجنون أن أفنى زهرة عمرى فى هذه الوحدة المضنية ، وأن القلب قد يحب مرة ، ولكنه يستطيع أن يحب مرة أخرى ، وأنه قد يذبل فترة ثم يعود الى الازدهار ، فحرام أن أقتل قلبى بيدى ، وأترك العمر يذهب سدى » .

وقلت له نبرات حالمة وكأنى أحدث نفسى :

– ان القلب لا يموت ما دام الاخلاص يغذوه ، وماذا يضيرنى أن يذهب العمر سدى ، ما دمت موقنة انه فى يوم ما عندما ينتهى العمر ، سألتقى بزوجى مرة أخرى ، وأضع يدى فى يده .. انى أحب الوحدة لأنها لن تنسينى اياه .

ولم أسمعه ينبس بكلمة بعد ذلك ، فقد غمرته موجة من الحزن والخيبة ، فأدار العربة وأعادنى الى البيت فى سكون واطراق .

ولا أدرى ما الذى أصابنى مجرد أن افترقنا ، ولا أستطيع أن أفهم قط سر ذلك التبدل الذى داخل نفسى .. لقد جلست فى حجرتى وقد فاض بنفسى الحزن ، وتملكتنى لوعة شديدة ، فقد أحسست من حولى بفراغ ووحشة ، وخيل لى أنى فقدت شيئا عزيزا ، وتذكرت قول الرجل :« ان القلب قد يذبل فترة ثم يعود الى الازدهار » .. أجل . ان قلبى قد بدا يزدهر مرة أخرى ، لقد كنت أحب الرجل ، لا شك فى ذلك .

ولم أحس وقتئذ بغضاضة عندما اعترفت لنفسى بأنى أحب مرة أخرى ، ولم أجد فى ذلك أى نوع من أنواع الخيانة ، فما كان حبى لزوجى الراحل ليحول دون حبى الجديد . وما كانت الذكريات الجميلة المقدسة فى نفسى لتحرمنى متعة من متع الحياة التى يتمتع بها كل كائن حى . أجل ، ان للموتى حبا ، وللأحياء حبا آخر .

وهكذا انقلب ذلك الشعور بالقلق الذى كنت أحسه بجواره ، الى شعور بالحزن عندما فارقته ، وعندما بت أخشى أن أكون قد فقدته الى الأبد .

ولكن لا .. انى قطعا لم أفقده ، فلا شك فى أنه سيعود ، ولا شك فى أنه سيطلب الزواج منى مرة أخرى ، وحينئذ سيجد منى مخلوقة أخرى ، وسأزيل من نفسه مرارة الخيبة التى سببتها له فى المرة الاولى .

ولكن الأيام مضت ، وهو لا يعود ، حتى بت أحس بقلق شديد ،

وحتى أقنعت نفسى فى النهاية بأنه من الخير لى أن أذهب أنا لأزيل من نفسه ذلك اليأس الذى سببته له ولأهيىء له فرصة أخرى .

وذهبت اليه فعلا ، بحجة أن « ضرسى » قد عاد يؤلمنى .

والتقينا مرة ثانية ، وليتنا ما التقينا ، فقد وجدته شخصا آخر ، لقد أقبل على فى برود وجمود ، كأن لم يكن بيننا شىء ، وظننته يحاول معاقبتى ، فقلت لنفسى : لا بأس ، فانى أستحق العقاب . ولكنه استمر ممعنا فى فتوره العجيب حتى لم أجد بدا من أن أحاول أنا من جانبى أن أقول شيئا أجدد به أمله فى أننى تغيرت ، وبدأت فعلا أتحدث عن مقابلتنا الاخيرة ، ولكننى رأيته يرفع الى رأسه ويقول فى صوت خافت :

– انى أشكر لك ذلك الدرس الذى علمتنيه ، لقد أريتنى مثلا فى الاخلاص ، وكنت فى حاجة الى ذلك ، فقد اعدت الى رأسى ذكرى صاحبتى الأولى التى ظننت أن القلب يمكن أن يستعيض بك عنها ، وأنه يمكننى أن أغنوه بك بدلا من أن أتركه يذوى ويموت ، ولكنك قلت أن القلب الذى يغنوه الاخلاص لا يمكن أن يموت ، وأن عزاءك فى الحياة هو أنه سيأتى يوم تلتقين فيه بصاحبك مرة أخرى ، فقلت لنفسى : لم لا يكون عزائى أنا الآخر هو أننى سألتقى بصاحبتى مرة ثانية ؟ أجل .. لقد أضحت الوحدة خيرا لى كما هى خير لك .

وأحسست ببرودة تسرى فى دمى ، وبقلبى يهوى بين ضلوعى .. اذا فقد كان يحاول أن يتعزى بى عن صاحبته ! لقد كانت خيبة الأمل شديدة على نفسى !

وتمالكت ، وحاولت أن أدع ابتسامة ترتسم على شفتى ، ثم ودعته وافترقنا . لقد كان الخطأ خطئى ، أنا التى دفعت الى رأسه ذكرى صاحبته ،لقد أعطيته درسا ما كان أقساه على نفسى .

آه من هذه الظلمة التى شملتنى بعد ذلك ، وآه من هذه الوحدة المضنية .. لم لا تترفق بنا الحياة فتكرر حوادثها مرتين ؟ لم لا تتيح لنا الفرصة مرة أخرى ؟ فقد تعلمت الآن كيف لا أدعها تفلت .. لقد عرفت الآن كيف أقول « نعم » دون أن أعطى دروسا فى الحياة .

أترى الفرصة تعود ؟ لا أظن .. ولكن مع ذلك أعلل النفس بالأمل ، والا لما استطعت البقاء فى قيد الحياة لحظة « ما أضيق العيش لو لا فسحة الأمل » .

★ ★ ★

وأطبقت الرسالة ونظرت الى صاحبى بدهش شديد ، فقد كان هو نفسه الدكتور (...) بطل هذه الرسالة ... وصحت به متسائلا :

– ولكنى لم أسمع قط أن لك صاحبة قد توفيت .

ونظر هو الى بدهش أشد ، بعد أن ألقى المجلة من يده ، وهز رأسه مستوضحا ، ثم سألنى :

– صاحبة توفيت ؟ لى .. أنا ؟

ودفعت اليه بالخطاب ، فأقبل على قراءته بلهفة شديدة ، ولم يكد ينتهى منه حتى رأيته قد عصفت به نوبة شديدة من الضحك .. ثم قال لى وهو يقفز من مكانه :

– لقد « انطلت » عليها .. لم يكن هناك بد من هذه الكذبة ، حتى أراد لها ذلك الدرس الذى حاولت أن تعطينى اياه ، وحتى أخرجها من تلك الوحدة التى كانت تحاول أن تطوى فيها نفسها ، لقد كانت كذبتى خير علاج لها « ودوائى بالتى كانت هى الداء » . لقد كنت أعرف أنها تحبنى ولكن لم تكن لديها الشجاعة الكافية لأن تعترف بالحقائق ، وأن تسدل على الماضى ستارا ، فلم أجد خيرا من أدعى ان لى أنا الآخر صاحبة راحلة ،

وذكريات عزيزة ، فعصفت بنفسها الغيرة من الصاحبة ومن الذكريات ، وعرفت أن القلب يمكن أن يحب مرة ، وثانية ، وثالثة ، بل انه لا يكف عن الحب حتى يكف عن نبضه .

ورأيت صاحبى يعدو خارج الحجرة مسرعا ، فسألته الى أين ؟ فأجاب :

– أعيد لها الحوادث ، وأعطيها الفرصة مرة أخرى ، وأحقق لى ولها « أملا » يجيش فى نفسينا .

★ ★ ★

ترضية

كنت أعرف أنك هنا وكنت أقدرك وأحترمك . ولو تركونى لجئت اليك امرأة شريفة وأصبحت زوجتك أما وقد أصروا على آرائهم وسخروا منى . فتعال . تعال . وهكذا قدم له القدر الاعتذار والترضية .

انطلقت منه ضحكة خافتة مليئة بالمرارة والسخرية ..

من كان يظن هذا ؟

من كان يخطر له على بال أن القدر سيمعن فى هزله وسخريته الى هذا الحد ؟ .

وعاد يقلب صفحات الصحيفة حتى استقر بصره مرة ثانية على الصفحة التى شغلته بصورها وأنبائها وقد تربع اسمها بالخط العريض على صدر الصفحة .

لقد كانت أمله فى يوم ما ، أملا قريبا سهل المنال ميسور التحقيق .. أما الآن .. !

وعادت الضحكة الساخرة المريرة تنساب من شفتيه .

أما الآن !

الآن ... الآن !

لشد ما خذله الزمن فى هذا الآن .. وخيب فيه آماله ، وبدد أحلامه .

كيف كان يبدو الآن ، عندما كان ينظر اليه من بعيد ، من سنوات خلت ، وقد وقف فى مطلع الصبا ومشرق العمر يتطلع اليه بذهنه الحالم ونفسه اللهفى ، ويتصور ما وراء الغيب مليئا بالورود والأغاريد .

كان شديد الثقة بنفسه وبالزمن .. ثقة قد بلغت حد الغرور واليقين .

وكان يجزم لنفسه أنه سيضحى رجلا ذا شأن ، ولم يكن يقنع فى آماله بالمطلب المعقول ، بل لم يكن يتصور نفسه مجرد طبيب مشهور ، أو مجرد محام ناجح .. بل كان واثقا أنه سيصبح شخصية بارزة .. زعيما أو قائدا أو فيلسوفا يشار اليه بالبنان .

كانت الآمال تداعب نفسه كما تداعب نفس كل انسان ، وكان يستقبلها فى استسلام ودعة وحبور ومتعة .

كان يتخذ من أمانيه وسيلة لفترات رغد ، ولحظات هناء .

حتى لقيها . فاذا بالمنى تلح على نفسه ، وتصر على أن تصبح - من أجلها - حقيقة واقعة .

رآها أول مرة عند عودته من المدرسة وقد وقفت مع لداتها بالمرايل السود أمام باب المدرسة الايطالية القريبة من دارهم تهم بركوب السيارة المدرسية .. وتوقف برغمه فى مكانه ووجد بصره يتبعها حتى تستقر فى مقعدها ، واستدار رأسه مشيعا السيارة حتى اختفت فى أول منعطف .

كانت وقتذاك نسيج وحدها! .. لقد جذبه وجهها بين عشرات الوجوه المتشابهة ، فلم يبصر سواه أو يذكر غيره .

وجلس للاستذكار ، فوجد وجهها يرتسم على كل صفحة وأمسك بالقلم يحاول أن يرسمها من الذاكرة .. وهل كانت الذاكرة تعى حينذاك سواها ؟

رسم أنفها الدقيق ذا الطرف الأشم المرفوع ، ورسم شفتيها القرمزيتين المطبقتين فى ضيق وامتلاء ، ورسم شعرها الذهبى ذا الجدائل المترامية على أكتافها .. رسم كل هذا على الورق عشرات المرات ، ورغم مهارته فى الرسم فما استطاع مرة واحدة أن ينجح فى نقل تلك الصورة المطبوعة فى ذهنه اذ عجز ان ينقل بريق العينين وهالة الضوء المحيطة به .

كان وقتذاك طالبا بمدرسة شبرا الثانوية ، وكان يقطن فى بيت يطل على حديقة طوسون . وكان يتخذ طريقه دائما الى المدرسة عبر الحقول المليئة بالقصب والخضروات فى ذلك الممر الضيق المسمى « دهليز طوسون » ، ولكنه منذ أن رآها بدا يغير طريقه ويضيف اليه لفة واسعة حول المدرسة الايطالية ويضبط مواعيده بحيث لا يخطىء قط رؤيتها وهى تصعد الى السيارة أو تهبط منها . أما فى أيام الجمع فقد كان يجول حول المدرسة عله يلمحها من بين فتحات السور تلهو مع أترابها فى حديقة المدرسة .

وهكذا بدأ يضيفها الى قائمة أمانيه ويضعها ضمن المنى التى يعيش بها « زمنا رغدا » . والتى كان يجتر منها متعه اذا ما خلا الى نفسه فى جلسته المحببة فى سكون الليل والأهل نيام ، وقد اتكأ برأسه الى حافة المقعد ومد ساقيه على سور الشرفة وأخذ يقلب البصر بين السماء والحقول ، وينصب الى حفيف الريح تعبث بأطراف أعود القصب وتسرى بينها كموج هادىء ، ومن آن لآخر يتعالى صوت نقيق الضفادع ، أو هبوط قط تتسلق السور المغطى بأوراق اللوف .

ورويدا رويدا أخذت تتمدد فى ذهنه وتتضخم فى قلبه حتى احتلت كل تفكيره ، وتضاءلت بجوارها كل أمانيه .

لقد علمه الزمن بعد ذاك الكثير عن النساء ، ولقى منهن شتى أنواع المتع ، ولكنه لا يذكر أن مخلوقة واحدة استطاعت أن تهبه ذلك النوع المسكر المنشى ، الذى كان يحيطه بجو عاطر مزدهر .

كان لا يقارنها الا بزهر الخوخ البمبى المعقود بأطراف الأغصان الجرداء ، وكانت تبدو له جزءا من الطبيعة لا صلة لها بالبشر ، اذا حملت اليه أريج زهر البرتقال ، فهو عبيرها ، واذا ما وصل الى مسامعه هديل الحمائم ، فهو همس شفتيها .

وظل حبها كامنا فى نفسه مطويا بين جوانحه ، وهو قانع بمجرد مراقبتها من بعيد ، موقن بأنها لا تحس له وجودا ، حتى أبصرها ذات يوم عقب خروجه من احدى دور السينما ، وقد جلست فى عربة تقف فى شارع فؤاد أمام « شيكوريل » . فوقف يحملق فيها مشدوها ، وكانت هى مشغولة عنه بمراقبة الطريق والمارة ، ولكن أختها الصغيرة كانت تجلس بجوارها فدفعتها بمرفقها تنبهها الى ذلك المشدوه الذى يحملق فيها ، وأدارت اليه رأسها فارتسمت على شفتيها ابتسامة خفيفة ، وعلا وجهها احمرار شديد .. وسرعان ما حولت عنه بصرها مرة ثانية .

لقد عرفته ! ان بسمتها واحمرار الخجل .. يجزمان بأنه يعنى شيئا لديها .. وأنها قد أخذت بمرآه كما أخذ بمرآها .

وهكذا أخرجه ذلك اللقاء العابر من انطوائه .. وجعل حبه يتخذ دورا ايجابيا .. ومنحه ما كان يفقده من الشجاعة والثقة .

وبدأ بعد ذلك دور التجاوب بالنظرات والتفاهم بالعيون وطال به ذلك الدور وهو مغرق فى نشوته ، يود لو أعلن لكل من لقيه أنها قد أصبحت

وذات يوم حدثت المعجزة التى لم يكن يتصور وقوعها ، ورسم له القدر طريق الوصول اليها .

وكان ذلك فى احدى الزيارات العائلية .. فقد ذهب وأسرته لقضاء احد أيام العطلة فى منزل خالته بمصر الجديدة وعقب الغداء أخذت ابنة خالته تعرض عليه « ألبوما » مليئا بصورها هى ورفيقاتها فى المدرسة .. وفى وسط الوجوه المحتشدة أبصر بوجهها يضيء على الورق .

وأمعن النظر فى الصورة برهة .. ثم تمالك نفسه وسألها عن صاحبة الصورة .

فأجابت وهى تقلب الألبوم :

– انها منى حسين ابنة زكى بك حسين مدير مصلحة (...) لقد كنا معا فى « ألبون باستير » .

– فتاة لطيفة .

– أتعرفها ؟

تعرفه وأنها بسمت له ، وأضحى ككل عاشق يتوهم أن نظرتها اليه تعتبر حدثا فى تاريخ البشر .

ولم يكن يستطيع أن يتصور ماذا يمكن أن يحدث بينهما بعد ذلك ، ولا كان يخطر على باله أنه يمكن أن يحدثها فى يوم من الأيام .. وهو الانسان الخجول الكتوم ، القليل الخبرة بأحوال الحب .

كيف يصل اليها وهو لا يراها الا خارجة من المدرسة أو راكبة السيارة ؟ وكيف يأمل فى لقائها وهى .. فيما يبدو ، من نوع ارستقراطى لا يكاد يخرج الا فى عربة ..؟ ان الأمر يحتاج الى معجزه وهو لا يعتقد أنه يعيش فى عصر المعجزات .

– رأيتها بضع مرات فى المدرسة الايطالية التى تجاور بيتنا .

– أتعجبك ؟

– جدا .

وتضاحك الأثنان .. وقالت الفتاة :

– لقد تعلمت الشقاوة .

– هذه تهمة ظالمة . انى لم أرها الا من بعيد .

ثم صمت برهة وأردف متسائلا :

– أما زلت تعرفينها ؟

– لقد قابلتها منذ يومين .. ودعتنى لزيارتها ، وعاتبتنى على عدم السؤال عنها .

– ولم لا تسألين عنها ؟

– لأنى لم أكن أعلم أنك مغرم بها .

– والآن ؟

– والآن سأسأل كل يوم .

– وتزورينها ؟

– وماذا يهمك من زيارتى لها ؟

– لكى ترد الزيارة .

– آه .. فهمت .. وسيصادف وجودك بالطبع ساعة زيارتها ؟

– اذا كنت تتكرمين .

– أيها الخبيث .. ماذا تريد منها ؟

– رؤيتها والحديث معها .

- فقط ؟

- فقط ، وأدفع نصف عمرى .

- لا داعى لنصف عمرك .. أحتفظ به لمرة ثانية ، سأريك اياها مجانا لوجه الله .

- متى ؟

- احضر الى يوم الأحد القادم .

- أواثقة أنت من احضارها ؟

سأبذل جهدى .

وفى اليوم الخالد ذهب ممسكا قلبه من فرط اللهفة والخشية .

انه يذكرها يوم ذاك ، جميلة ناعمة هادئة ، قد جلست تنظر اليه فى دهش وخجل ، وقد أخذت ابنة خالته تقوم بواجب التعريف بين الاثنين .

ولم تمض برهة على لقائهما حتى كان كلاهما يقبل على صاحبه وكأن بينهما ودا قديما .

وتكرر اللقاء بينهما بعد ذلك فى بيت خالته ، ثم تحايلا على اللقاء وحيدين .

كان وقتذاك فى الثامنة عشرة ، وكانت هى فى الرابعة عشرة ، ومع ذلك فقد كانا فى حبهما أبعد ما يكونان عن الطيش والنزق واللهو ، كان كل منهما أعقل وأكبر من سنه ، وكانا فى تفكيرهما جادين كل الجد ، ساميين كل السمو .

كان أمامه سنة فى المدارس الثانوية ، وكان من رأيه أن يدخل السلك العسكرى حتى يسرع فى التخرج لكى يقرب موعد زواجهما ، ولكنها كانت ترى أن يدخل الهندسة ، فقد كانت تريده مهندسا بارعا عظيم الشأن ، ولم

نكن ترى هناك ما يدعو للعجلة ، ما دام كل منهما يرى صاحبه وينعم بلقائه .

واقتنع برأيها ، وبدأت أمانيه التى لم تكن تعدو مجرد أمانى يسلى بها نفسه ، تتحول الى هدف لابد من تحقيقه ، فقد كان يحس أن أباها أرفع من أبيه شأنا ، وأن أسرتها من الطبقة الارستقراطية ، ولهذا فقد ود أن يكون أهلا لها حتى يسهل على أسرتها قبوله ، وحتى يكون ندا لها .

لقد كان واثقا منها ، ولكنه رغب فى أن يجنبها معارضة الأهل .. وهو لا ينكر أنه اندفع فى عمل كما اندفع وقتذاك فى الاستذكار والتحصيل والسهر .. لقد صمم على أن يكون انسانا ذا شأن ، وأن يكون أرفع من أبيها الذى أصبح وقتذاك وكيل وزارة .

ولم لا ؟

انه يستطيع أن يكون جراحا نابغة ، أو مهندسا بارعا ، أو محاميا شهيرا ، ويستطيع أن يصيب من الثراء ما يهيىء به لها حياة أكثر رغدا من حياة أبيها .

أجل ! أنها تستحق كل خير ، ولابد أن يهبها ما تستحق .

تلك كانت أمنيات الصبا ، ورغبات التلمذة .

ماذا فعل بها الزمن ؟

لقد ذراها بنفخة واحدة .. لقد ضيعها بددا .

لقد رزقه بالمصاب من حيث لا يحتسب .

ففى ذات يوم ، صعدت مع ملايين الأرواح الصاعدة الى السماء روح أبيه .

لقد مات أبوه فى يوم الامتحان ، ومع ذلك فقد اجتازه ونجح الى

السنة الخامسة ، ولكن الاستمرار فى الدراسة كان أمرا متعذرا .. فقد مات أبوه دون أن يخلف لأسرته سوى مكافأة ضئيلة .. وكان عليه أن يعمل لكى يكسب قوته وقوت أسرته .

ونجح بعض الأقارب فى الحاقة بوظيفة كتابية .. ولكن كان عليهم أن ينتقلوا من بيتهم الى بيت أقل أجرا .. وأن يضغطوا مصروفاتهم بما يتناسب ودخلهم البسيط المحدود .

وهكذا غادروا الحى .. فقد عز عليهم أن يبدوا أمام المعارف بمظهر الأذلاء المحتاجين .

وهو يذكر لقاءها بعد وفاة أبيه .. ويذكر عزاءها له وتشجيعها اياه .. ويذكر شحذها لعزيمته و استنهاضها لهمته .. وقولها له أنها ستنتظره حتى يحقق آماله .

يحقق آماله ؟ كيف ؟ وبم ؟

لا . لا . لقد كان من الجنون أن يحاول التمسك بآمال حطمها الزمن .. ان عليه أولا وقبل كل شىء ان يطعم أسرته ويكسوها .. أما غير ذلك فيجب أن يطرح من الذهن .

ومرت الأيام وهو فى مهمته الجديدة مرهق مكدود .. لقد كان أجره من وظيفته تافها بالنسبة الى المطالب التى يجب عليه أن يؤديها لأسرته .

وفى ذات يوم سنحت له فرصة هيأت له مخرجا من تلك الحاجة والعوز .. ولكنها لم تكن فرصة خالصة .. بل كانت تحوطها بعض المساوىء التى تحتاج الى موازنة وتفكير .

لقد كانت وظيفته ساق فى أحد الفنادق الكبرى .

أجل .. ليسم ساقيا ، أو رئيس سقاه ، أو يسمونه ما شاءوا ولكنه لا يزيد على « جرسون » .

يا للسخرية ! .

أهذا هو المركز العظيم الممتاز الذى كان يتوقعه لنفسه ؟ لا .. لا .. انه لن يقبل .

ولكن الأجر كبير ، وأسرته فى أشد الحاجة اليه وهو عمل شريف لا غبار عليه .

لا . لا . يجب أن يقبل . ان رفضه اياه هو الأنانية بعينها .

وماذا يخشى على نفسه منه ؟ وممن يخشى ؟

يخشى من مخلوقة واحدة !

هى ..

ماذا تقول اذا علمت أنه قد أصبح « جرسونا » ؟

ولكنه لن يخبرها .

لقد انقطع عن رؤيتها ، ووطن العزم على نسيانها ، فقد كان من الخبل أن يأمل فيها .

وهكذا قبل العمل الجديد .

ومرت به الأيام الأولى فى عمله وهو مرتبك خجل ، ولكنه بدأ يتعوده شيئا فشيئا ، حتى اطمأن اليه ، ولم يعد يرى فيه ما يهدر كرامته ، ما دامت هى على الأقل لا تعرف .

وهكذا مر به الزمن ، وهو لا يحاول السؤال عنها أو معرفة أخبارها ، حتى فوجىء اليوم برؤية صورها فى الصحف وبقراءة أنباء زواجها من أحد أرباب الثروات والمراكز فى مصر .

وهكذا أصبحت علما من الأعلام تكتب فى صدور الصحف أنباء

ذهابها وايابها ، وتوصف حركاتها وسكناتها وترسم فى كل حال لها وترحال .

ولم يشعر من زواجها بحزن .. فقد كان يشعر أنه قد فقدها من زمن ، وأن من السخف أن يحاول التطلع اليها أو الحزن على فقدها .. لقد تراكمت ثلوج اليأس على قلبه . فما عاد يهفو لفرحه أو يرجف لحزن .

وناداه ذات صباح رئيس الفندق وأخبره أنه يثق فى ذوقه ومقدرته ، وأنه لذلك سيعهد اليه بخدمة نزيل عظيم سيحل بالفندق لقضاء شهر عسل هو وزوجه .

وأحس بقلبه يدمى ، فقد رأى أن سخرية القدر قد بلغت أشدها ، وحاول أن يعتذر ، ولكن صاحب الفندق أبدى دهشة وأصر على أن يتولى هو خدمتهما .

ولم يكن أمامه سوى الرضوخ والرضاء بالأمر الواقع ، والتعزى بالمثل « ماذا يضير الشاة من سلخها بعد ذبحها ؟ » .

ولم يعد له سوى أمل ضئيل يتعزى به ، وهو أن تكون قد نسيته .

وهكذا وقف ينتظر مقدمهما ، ووقفت العربة الفخمة أمام الباب ، وهرع الخدم يفتحون الباب ، ونزلت هى وزوجها تتهادى فى عظمة .

واشتدت ضربات قلبه ، وأطرق الى الأرض .

يا للقلب الذى لا ينسى ! . انه يتخبط فى صدره .. لقد تخلص من ثلوج اليأس وعاد يهفو ويصفق .

انها هى .. هى .. بطوطوفة أنفها وشفتيها القرمزيتين وشعرها الذهبى .

وهذا هو زوجها ، بوجهه المنتفخ ، ولغده المتدلى على صدره ، وبطنه المتدلى على ساقيه ، ورأسه اللامع البراق .

لعن الله المال .

ان هذا الخنزير الأبيض لو قدر بغير ماله ، لما وازى ثمنه أكثر من خمسة وعشرين جنيها هى ثمن ملابسه .

ويحه ! انها لا شك قد نسيته ، أو أنها تتعمد انكاره وتجاهله .

وماذا كان ينتظر سوى هذا ؟

هل كان يتوقع أن تهجم عليه فتوسعه أحضانا وتقبيلا ؟

كيف يمكن أن تعامل مليونيره مثلها سافيا مثله ؟

وأحس بالذلة والمسكنة . انها لا شك معذورة فى تصرفها ولكن أما كان يجب أن تمنحه نظرة معرفة لا يحسها سواه ! أكثر عليه أن تمنحه مجرد نظرة تعارف ؟

ومضى اليوم وهو قائم بالخدمة ، وهى لا تكاد تحس له وجودا ، ولا ترى فيه الا واحدا من الخدم .

لقد كان عليه أن يحتمل شهرا من الاذلال .

وفى المساء هبط الخنزير الأبيض وحده الى قاعة العشاء ، ثم انتقل بعد ذلك الى حجرة الورق وانهمك فى اللعب .

وبعد هنيهة أنبأه أحد الخدم أن السيدة تريد العشاء فى حجرتها ، وأنها تطلب أن يحمله هو اليها .

هو بنفسه ! أجل .. انه امعان فى الاذلال .. لم ؟ وماذا فعل ؟

ولكن لا بأس عليه ..أنه سيصمد أمام عاصفة الاذلال . ماذا يضيره أن يحمل اليها العشاء ؟ أليس خادما ؟

وهكذا حمل الطعام ، ووقف يطرق باب حجرتها فصاحت به :

- أدخل - أدخل .

وفى الحجرة وجدها واقفة تنتظر ، ووضع الطعام على المائدة وهو مطأطىء الرأس دون أن ينظر اليها ، ثم استدار وهم بالخروج ، ولكنها قالت هامسة :

- تعالى .

وواجهها رافعا رأسه ، فعادت تهمس :

- اقترب .

واقترب منها حتى تلاصقا ، وأمسكت بيده فضغطت عليها فى حرارة وأردفت هامسة :

- دعنا نسخر منهم جميعا .. دعنا نسخر من القدر الساخر .. ماذا كنا نريد أكثر من شهر عسل فى مثل هذا الفندق ؟

وتردد برهة .. فقد سلبته المفاجأة صوابه ، ولكنه سرعان ما مد ذراعيه يضمها اليه وأطبق على شفتيها .

ثم رفع شفتيه برهة وأخذ يتمتم فى ذهول :

- ظننتك نسيتنى .

- أنا أنساك ! لقد صممت على انتظارك فسخروا منى . وعندما تقدم هذا « الشوال » من الذهب لخطبتى كادوا يجنون من الفرح ، واعتبروها فرصة العمر .. وكان من الجنون أن أحاول مقاومتهم .. فاستسلمت .

لقد ضحوا بى فى سبيل أغراضهم ، لقد تزوجوا هم صاحب الملايين ، أما أنا فقد كنت طعما لصيدهم ، كانوا كلهم مغرضين غير شرفاء ، فلماذا تكون نحن وحدنا شرفاء ! لقد سخر منا القدر عندما حاولنا

أن يسلك كل منا الى الآخر سبيلا شريفا ، وصمم على أن يضع بيننا هذه القنطرة من المال ، فلم نعبرها ؟ كنت أعرف أنك هنا وكنت أقدرك وأحترمك ولو تركوني لجئت اليك امرأة شريفة ، وأصبحت زوجتك . أما وقد أصروا على آرائهم ، وسخروا منى .. فتعال .. تعال .

أخذها مرة أخرى بين ذراعيه .

وهكذا قدم له القدر الاعتذار والترضية ، وهيأ له شهر عسل على غير انتظار .

★ ★ ★

للمؤلف

اطياف . . .	(قصص قصيرة	١٩٤٧)
نائب عزرائيل . .	(رواية	١٩٤٧)
اثنتا عشرة امراة .	(قصص قصيرة	١٩٤٨)
خبايا الصدور . .	(قصص قصيرة	١٩٤٨)
يا امة ضحكت .	(قصص قصيرة	١٩٤٨)
اثنا عشر رجلا .	(قصص قصيرة	١٩٤٩)
ارض النفاق . .	(رواية	١٩٤٩)
فى موكب الهوى .	(قصص قصيرة	١٩٤٩)
من العالم المجهول .	(قصص قصيرة	١٩٤٩)
هذه النفوس . .	(قصص قصيرة	١٩٥٠)
انى راحلة . .	(رواية	١٩٥٠)
مبكى العشاق . .	(قصص قصيرة	١٩٥٠)
بين ابو الريش وجنينة نامیش . . .	(قصص قصيرة	١٩٥٠)
اغنيات . . .	(قصص قصيرة	١٩٥١)
ام رتيبة . . .	(مسرحية	١٩٥١)
هذا هو الحب . .	(قصص قصيرة	١٩٥١)
صور طبق الأصل .	(قصص قصيرة	١٩٥١)
بين الأطلال . .	(رواية	١٩٥٢)
السقا مات . .	(رواية	١٩٥٢)
سمار الليالى . .	(قصص قصيرة	١٩٥٢)
الشيخ زعرب . .	(قصص قصيرة	١٩٥٢)
نفحة من الايمان .	(قصص قصيرة	١٩٥٢)
وراء الستار . .	(مسرحية	١٩٥٢)
ست نساء وستة رجال	(قصص قصيرة	١٩٥٣)
هذه الحياة . . .	(قصص قصيرة	١٩٥٣)

البحث عن جسد	(رواية	١٩٥٢)
جمعية قتل الزوجات	(مسرحية	١٩٥٣)
غدينك يا ليلى	(رواية	١٩٥٣)
ليلة خمسر	(قصص قصيرة	١٩٥٣)
همسة عابرة	(قصص قصيرة	١٩٥٣)
رد قلبى	(رواية فى جزاين	١٩٥٤)
ليسال ودموع	(قصص قصيرة	١٩٥٥)
طريق العودة	(رواية	١٩٥٦)
ايام تمسر	(مقسالات	١٩٥٧)
من حياتى	(مقسالات	١٩٥٨)
لطمات ولثمات	(مقسالات	١٩٥٩)
ناديسسة	(رواية فى جزاين	١٩٦٠)
جفت الدموع	(رواية فى جزاين	١٩٦١)
ايسام مشرقة	(مقسالات	١٩٦١)
ايام وذكريات	(مقسالات	١٩٦١)
ايام من عمرى	(مقسالات	١٩٦٢)
ليل له آخسر	(رواية فى جزاين	١٩٦٤)
اقوى من الزمن	(مسرحية	١٩٦٦)
نحن لا نزرع الشوك	(رواية فى جزاين	١٩٦٩)
لست وحدك	(رواية	١٩٧٠)
من وراء الغيم	(مقسالات	١٩٧٠)
ايام عبد الناصر	(مقسالات	١٩٧١)
ابتسسامة على شفتيه	(رواية	١٩٧١)
طائر بين المحيطين	(رحسلات	١٩٧١)
العمر لحظسة	(قصسة	١٩٧٣)

رقم الايداع ٢٣٥١ / ٨٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

Bibliotheca Alexandrina
0294464

الثمن ٧٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه